ثانيًا: الرحالة الأجانب

(١) الرحالة الألمانى فيلكس فابرى
(١٤٣٤-١٥٠٢)

تكتسب رحلة الألمانى فيلكس فابرى (١٤٣٤-١٥٠٢) إلى القدس أهمية خاصة فى تاريخ الحقبة المتأخرة من العصور الوسطى، ليس فقط لما كتبه فابرى عن الأراضى المقدسة، وإنما لما قدمه من وصف نادر للمدن التى قام بزيارتها، وهو وصف تميز بالدقة المتناهية فى العرض والتحليل .

وفيلكس فابرى من مواليد زيورخ عام ١٤٣٤ وينتمى إلى عائلة نبيلة، وعند بلوغه عامه التاسع عام ١٤٤٣ قتل والده فى أثناء فترة الحرب الأهلية فانتقل إلى عمه الذى كان يشغل منصب قائد لبعض الفرق الحصينة فى كيوربورج. وفى الخامس والعشرين من نوفمبر ١٤٥٢ لبس فابرى ثوب الراهب فى بال، ومارس عمله مترجما للغة اللاتينية التى كان يتقنها . وقد اشتهر اسمه فى هذا المجال، ثم ما لبث فابرى أن ترك مدينة بال وذهب إلى دير الدومنيكان فى مدينة أولم حيث أصبح داعية ومبشرا عاما . على أية حال فقد كانت رحلة فابرى الأولى إلى بيت المقدس والأراضى المقدسة فى عام ١٤٥٧ م / ٨٦٢ هـ . . أما رحلته الثانية فكانت فى عام ١٤٨٣م / ١٤٨٤م، والتى زار خلالها سيناء ومصر عن طريق الصحراء، ثم إلى البحر الأحمر متوجها من السويس إلى القاهرة، ومنها عن طريق النيل إلى الإسكندرية التى أبحر منها إلى فينيسيا . وفى عام ١٤٨٨ م / ٨٩٤ هـ، عكف فيلكس فابرى على كتابة رحلته باللغة الألمانية واللاتينية، وبعد انتهائه من كتابة رحلته قرر العودة لزيارة مدينة القدس، وحصل بالفعل على الموافقة بالسفر فى ٢١ أكتوبر سنة ١٤٨٩م، وتعد هذه الرحلة الأخيرة لفابرى حيث مات وهو بثوب الحج بعد عودته فى ١٤ مارس ١٥٠٢ م / ٩٠٨ هـ .

وبشأن هذه الرحلة وقع اختيارنا على الدراسة الممتازة التى قدمتها الدكتورة سهير محمد إبراهيم نعينع أستاذة تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب جامعة الإسكندرية والتى قدمتها إلى مؤتمر كلية الآداب، جامعة القاهرة .

وفى دراستها تحاول د . سهير نعينع ربط ما جاء فى كتابات فابرى بعضه ببعض؛ وذلك لاستخلاص رواية متكاملة، خاصة أن الجزء الأول من كتابه كان أشبه ما يكون بالمذكرات اليومية التى ربما دعته إليها ظروف رحلته، والوعد الذى قطعه على نفسه للرهبان إخوانه من جماعة الدومنيكان التى ينتمى إليها .

وتميزت كتابات فابرى منذ البداية بوصف كل ما يقابله أو يشاهده حيث كان مغرما إلى حد كبير بكتابة مشاهداته فى شكل تقرير يومى منفصل أشبه ما يكون بالمذكرات الشخصية .

وجاء على لسان فابرى فى وصف مدينة القدس أنها أكثر المدن روعة وجمالا، فيقول: «هى القدس التى ينتشر شذاها فى كل مكان من العالم لتستدعى المسيحى المخلص للذهاب إليها» . وتقع مدينة القدس فى اتجاه الجنوب الشرقى وسط حدائق وأشجار الفاكهة والتين، وكان جبل صهيون والقلعة أول ما شاهدته قافلة فابرى، ووصفه وما عليه من مبان سليمة وأخرى مهدمة، وكما وصف قلعة جبل صهيون وتحصيناتها القوية وأبراجها العالية والتى بدت وكأنها تحيط المدينة كلها . ويذكر فابرى «أن الحجاج الذين لم يشاهدوا القدس من قبل سوف يعتقدون أن جدران القلعة هى جدران القدس» . وحين وصلت القافلة إلى مكان القلعة تركوا بعيرهم لسائقهم ودلفوا من باب أطلق عليه فابرى اسم باب التجار أو باب السمك أو باب داود . ويفضى هذا الباب إلى شارع طويل ينتهى عند كنيسة عظيمة مغلقة، أمامها مكان فسيح مرصوف بالرخام الأبيض المصقول ذى بياض شاهق . ويسهب فابرى فى وصف مشهد استقبال الحجاج للنبأ الذى ذكره رجل من دير صهيون بأن هذه الكنيسة هى أقدس الكنائس، وما كان من أمر الحجاج الذين قاموا بإلقاء أنفسهم على أرض المكان أمام باب الكنيسة وتقبيل الأرض والصلاة والبكاء والعويل . وبعد انتهاء مشهد الصلاة تمكن فابرى من أن يرى

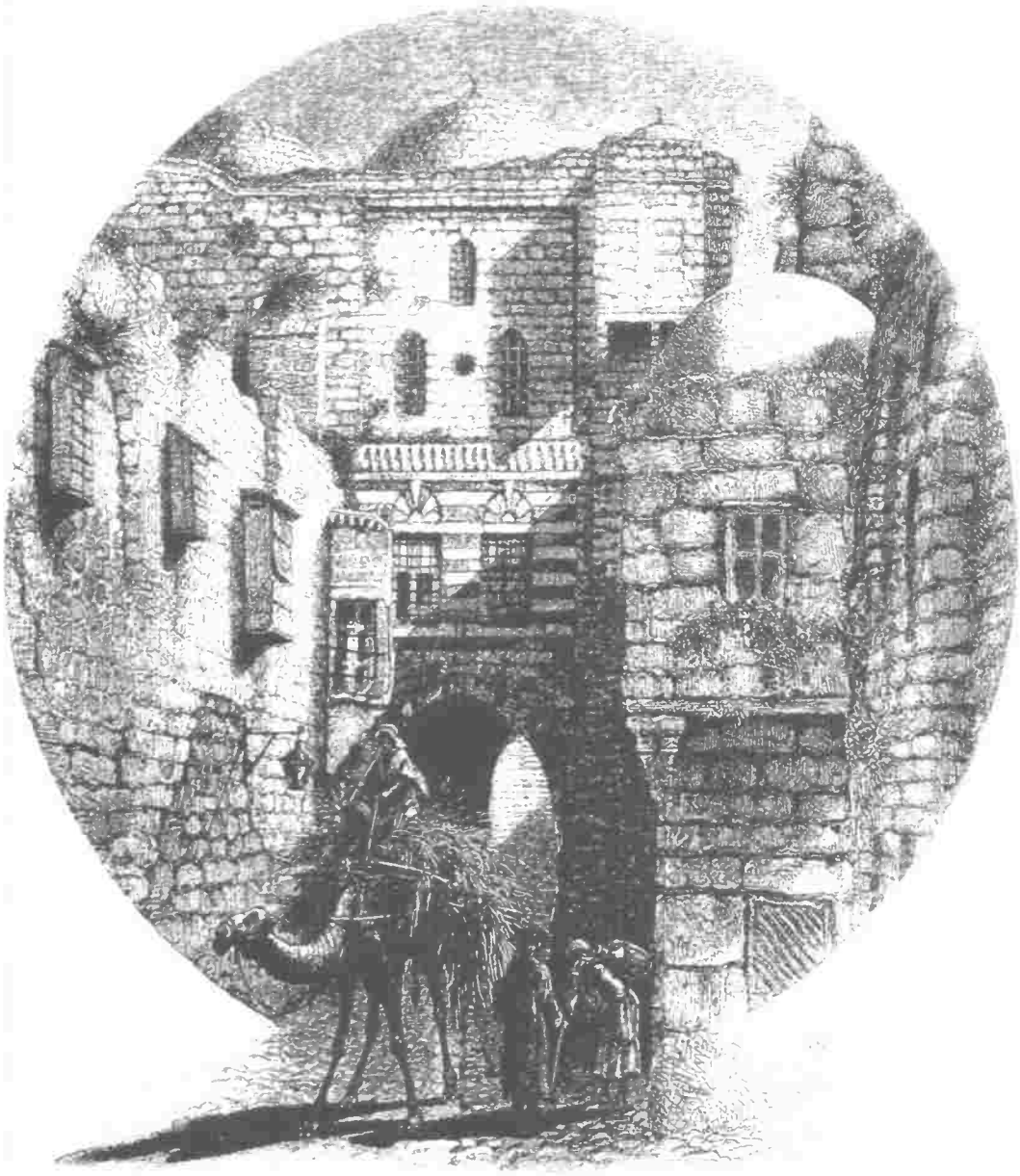

أحد أحياء مدينة القدس داخل السور ـ للرسام روبرت عام ١٨٧٥م

الفجوات التى كان يمر منها الطعام إلى حراس الكتاب المقدس، حيث كان يقفل عليهم بداخل الكنيسة فى مقصورة توجد بها الكتب المقدسة، وفى منتصف الفناء توجد علامات على الأرض الرخامية . بعد ذلك قام مرشدهم بقيادتهم إلى خارج الميدان حيث عبروا الطريق إلى مستشفى القديس چون الذى يعتبر من أكبر المبانى المقببة، ووصفه بأنه شديد القذارة ومحطم، ويشبه فى شكله قاعات الطعام الكبيرة فى الأديرة . ولم يفت فابرى الإشارة إلى وجود العرب المسلمين واليهود والمسيحيين الشرقيين عند وصولهم لهذا النزل ومعهم الخبز والمياه والغذاء المطهو والفاكهة يبيعونها لهم .

وإن دل هذا على شىء (كما تقول د . سهير نعينع فى دراستها) فإنما يدل على روح التسامح والأمان اللذين وجدا فى القدس وقت زيارة فابرى، وتحت حكم دولة المماليك الثانية، وبالتحديد على عهد السلطان قايتباى (١٤٦٨-١٤٩٦ م / ٨٧٢-٩٠١ هـ) حيث وجدت المراسيم الخاصة بتوفير معاملة محترمة للحجاج المسيحيين الشرقيين المقيمين بصفة دائمة، والسماح لهم بترميم كنائسهم وأديرتهم . بعد ذلك تلقى الحجاج دعوة من الأب الحارس لدير صهيون لزيارة الدير والاشتراك فى قداس عيد القديسة مارجريت العذراء بكنيسة صهيون، ووصف فابرى القداس معلقا على تزيين المكان بالأغطية والمفارش والستائر الثمينة المطرزة تطريزا بديعا لم ير له مثيلا فى فخامته فى أى مكان، لدرجة أن قواد العرب المسلمين والأتراك والمماليك جاءوا طلبا لمشاهدة هذه الستائر والمنسوجات . ويضيف فابرى أن هذه الكنيسة الصغيرة كانت جزءا من كنيسة كبيرة كانت موجودة فى تلك البقعة، وأن المكان قد استولى عليه العرب المسلمون وقاموا بتحويله إلى مسجد . ويؤكد على كلامه هذا لتشابه الجدران الموجودة بالكنيسة ـ التى هى الآن مسجد ـ بالجدران الموجودة فى مقدمة جوقة المرتلين، وأن السلطان المملوكى قام بالاستيلاء على المكان من الإخوان الفرنسيسكان بسبب طلب اليهود المتكرر من السلطان إعطاءهم هذا المكان ليكون معبدا لهم، وادّعوا أحقيتهم فى ذلك المكان فهو ـ كما يدّعون ـ مكان دفن نبيهم داود، فما كان من السلطان إلا أن قال : «إننا أحق الناس بنبى الله داود منكم»

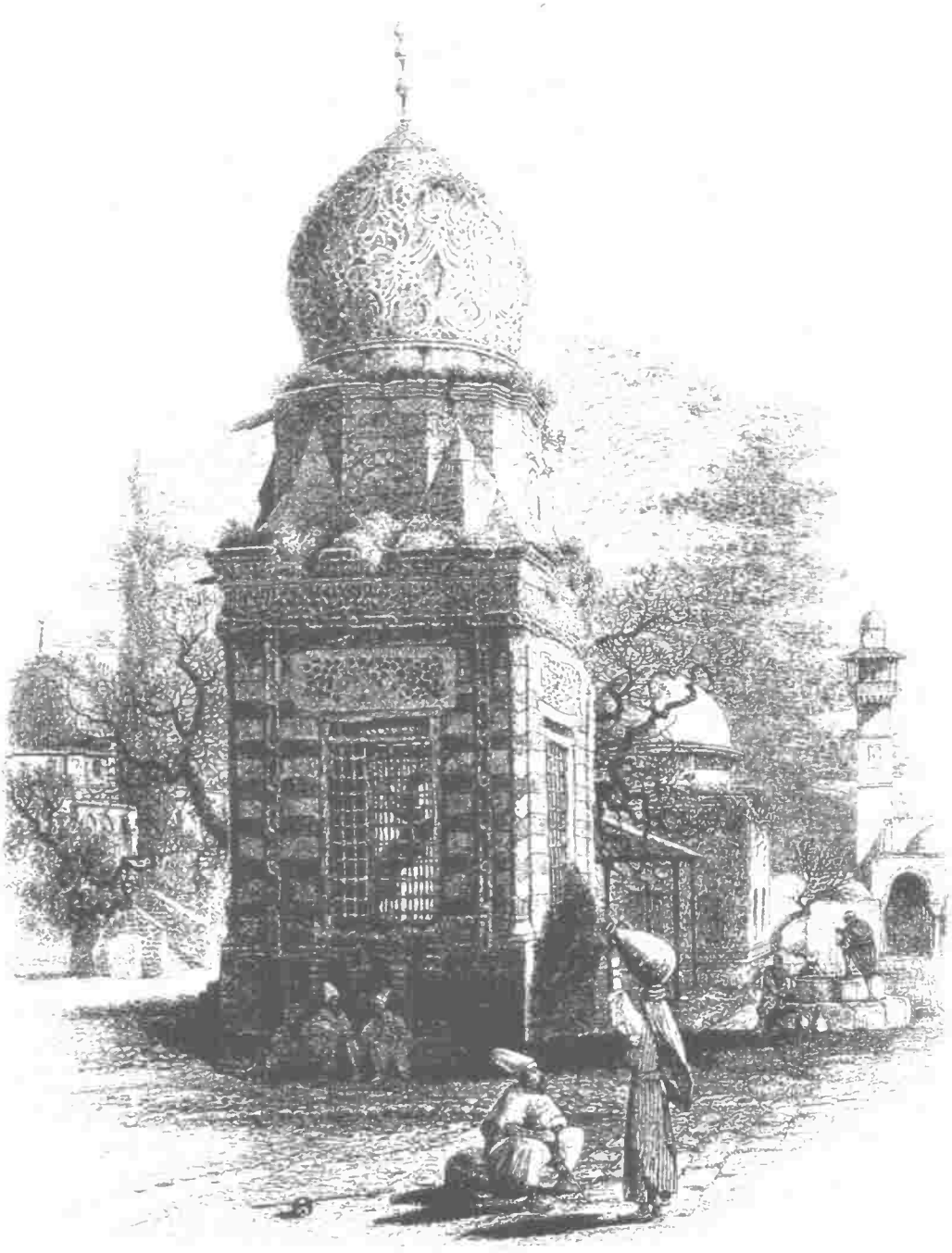

سبيل قايتباى ـ القدس ـ للرسام روبرت عام ١٨٧٥م

وأمر بغلق الباب الخاص بالدير، وحَوّل الكنيسة إلى جامع، وأقام بابا من الخارج خاصا بالمسلمين يفصل بينه وبين الكنيسة، وهكذا فقد الإخوان الرهبان الفرنسيسكان هذا المكان الأكثر تقديسا - على حد تعبيره - بسبب تعنت اليهود وتصميمهم على امتلاك ذلك المكان، فقاموا بالاحتجاج لدى السلطان المملوكى، وتعهدوا بدفع الآلاف من النقود الفضية ثمنا لهذا المكان . ويعلق فيلكس على هذا الأمر تعليقا متهكما ساخرا فيقول: إن اليهود لم يقوموا بهذا الطلب لمجرد تبجيل واحترام مقابر الملوك أو لقداسة المكان، ولكنهم يأملون فى الوصول إلى توابيت الملوك، وإيجاد الكنوز التى يعتقدون بوجودها هناك، بزعم أنها من حقهم، وقد تصدى فابرى لتكذيب مزاعم اليهود بشأن هذا الأمر، وذكر صراحة أن قصة اليهود مشكوك فى أمرها؛ لأنه ليس من المعقول أن يقوم الملوك والأنبياء بمثل هذه الأفعال التى هى أقرب إلى الوثنية والهمجية فى رأيه، ويؤكد على أن الملك سليمان عليه السلام كان فى إمكانه إخفاء هذه الكنوز بعمل أكثر فنا من دفنها؛ لأنه كان قادرا على ذلك . ويضيف فابرى أن إخفاء الكنوز من جانب هؤلاء الرجال المقدسيين لم يكن بدون فائدة أو حبا للغنى المؤقت، فبعد مرور الزمن سوف يكون لهذه الكنوز فائدة للجنس البشرى عامة، وليس لجشع اليهود الذى لا يمكن أن يشبعه شيء قط .

تطرق فابرى بعد ذلك إلى وصف رغبته الشديدة لمشاهدة هذا المسجد المجاور للكنيسة من الداخل، ويسجل كيف واتته الفرصة حينما أغلق الحارس المسلم باب المسجد بسرعة دون التأكد من قفله جيدا، أو ربما كان ذلك لوجود عيب فى مفتاح القفل الخاص بالباب، الأمر الذى منع المزلاج من التحرك؛ وهكذا ظل الباب مفتوحا طيلة وجوده فى هذا المكان وتمكن من دخول المسجد أكثر من عشر مرات - على حد قوله - رأى خلالها المسجد من الداخل على الرغم من الرعشة التى كانت تنتابه خوفا من أن يراه أحد، فيقع فى مشاكل كثيرة فى حالة نجاته من القتل . وعلى الرغم من رواية فابرى هذه - والتى ربما توحى بصدقه - إلا أن الدكتورة سهير نعينع تجده فى موضع آخر ينفى عن نفسه دخول أحد المساجد على الرغم من حبه للمشاهد الغريبة وفضوله كما يقول إلا أن هذا لم يغره أبدا

بالدخول إلى داخل المسجد الأقصى . وقد نسى أنه وصف هذا المسجد الصغير من الداخل وكيف كانت به مقصورة طويلة ذات سقف مقبى، وبها نافذتان فى الجانب الشرقى، وفى الجانب الشمالى من المسجد توجد مقبرة رخامية، أما أرض المسجد فهى مغطاة بالحصير، كما يوجد مصباحان معلقان، ولم يفت فابرى الإشارة إلى تعجبه لعدم وجود مذبح أو رسومات أو أى عمل نحتى داخل المسجد، وأن أهم ما يميز هذا المسجد حوائطه البيضاء الخالية من الزخارف والرسومات .

وحين يذكر فابرى مدينة بيت المقدس ويعدد الأسماء التى كانت تطلق على المدينة عبر العصور التاريخية المختلفة، تلمس د . سهير نعينع الانتقال الكبير بين أسلوبه التقريرى الذى بدأ به وصف رحلته لينتقل إلى أسلوب آخر أكثر تحقيقا، يتضح منه الاستعانة بالكتب التاريخية والمصادر المتاحة له ـ بحكم إجادته للغة اللاتينية ـ إلى جانب رجوعه فى أحيان كثيرة إلى الكتاب المقدس ـ الإنجيل ـ فهو يقول : إن مدينة القدس قد لقبت بأسماء كثيرة ومتعددة، فهى سالم وأحيانا يلقبها الشعراء سليما، وجيبوس وأورشليم ولوكا، وأطلق عليها جرن أيضا، وأريل المدينة الدموية، وابنة صهيون، والمدينة التى لا تهجر، وعرش الرب، والعظيمة بين الأمم، والأميرة بين المقاطعات، ووادى الرؤية، والبرج، وإليا نسبة إلى اسم الإمبراطور هادريان، كما أطلق عليها هاليا وكابيتوليا، ولقبت بالجاريزا والجبل العالى الشاهق، ويذكر فابرى أن العرب المسلمين لقبوها بالكوثة Alkosse وأطلق عليها اللاتين Jerusalem أو القبر المقدس .

أما بالنسبة لمساحة المدينة، فهى كما يقول : أصغر من المدن الكبيرة وأكبر من المدن الصغيرة، أى أنها متوسطة المساحة، وهو ينص على أن لمدينة بيت المقدس ثمانية أبواب أو بوابات رئيسية فى الأزمنة القديمة، لكنه لم يستطع تمييز سوى خمس بوابات أو أبواب رئيسية فقط . وهى من الشرق البوابة الذهبية . وبين الشرق والجنوب بوابة الروث، وفى الجانب الجنوبى توجد بوابة العين، التى من خلالها نصل إلى عين سلوان، وإلى الغرب توجد بوابة التجار أو السمك ـ كما يسميها فابرى ـ ويقول : إنها هى نفسها باب داود . وفى اتجاه الشمال بالقرب من

الركن الذى يتصل بالحائط الشرقى توجد بوابة إبراهيم . وقد ذكرها فى موضع آخر تحت اسم بوابة القديس ستيفن . وهناك مسافة طويلة بين بوابة السمك وبوابة القديس ستيفن ؛ وذلك لأن باب التجار أو السمك أو داود مقام فى الركن الذى يصل إلى الحائط الجنوبى الغربى ، والسور الغربى للقدس ـ حسبما يذكر فابرى ـ لا توجد به أبواب ، وهو يخالف ما هو مدون فى المصادر الإسلامية .

أما عن سور المدينة الذى كان يحيط بمدينة القدس فهو ـ كما جاء فى كلام فابرى ـ قديم ومتهدم ، وعلى دوران حوائطه كانت توجد شرفات وأبراج نستطيع تمييز أماكنها ، إلا أن العرب قاموا ببناء أبراج أخرى داخل المدينة بالقرب من المساجد . ومن خلال قراءات فابرى فى المصادر التاريخية ، يذكر أنه كان لمدينة بيت المقدس أسوار مزدوجة دائرية وقوية ، تحيط بها الخنادق من كل من الجانبين الغربى والشمالى ، أما بالنسبة للجانب الشرقى ، فيوجد وادى چيهوشفاط Jehoshephat والجانب الجنوبى يقع وادى صهيون . والمدينة ـ كما يصفها ـ غير مستوية تكثر بها التلال وهى نفسها مدينة على تل كبير يجد المرء نفسه فى صعود وهبوط فى كل أنحاء المدينة ، ويعد جبل صهيون أعلى قمة ، ويوجد على المنحدر الشمالى منه عدد كبير من منازل المدينة ، ويعلو فوق كتف جبل صهيون جبل جاليورى ، وهو يدعم كنيسة القيامة ، ويوجد أيضا جبل يطلق عليه فابرى جبل موريا .

أما بالنسبة لدور العبادة ، فقد ذكر فابرى المسجد الأقصى ، وكنيسة القبر المقدس التى كانت قد تحولت إلى مسجد وقت زيارته للمدينة ، كما توجد مساحات واسعة رحبة وفسيحة متصلة بمبانى المسجد ، إلى جانب وجود العديد من المساجد الأخرى ودور العبادة الخاصة بالمسلمين واليهود . وبالنسبة لشوارع المدينة ـ كما ذكرها فابرى ـ فهى تنقسم إلى شوارع رئيسية مقببة ، ويوجد أسفل تلك القباب محلات تجارية أو مطابخ الطهاة ، أما عن الشوارع الأخرى غير الرئيسية فيسكن بها العاملون ، ومعظم منازل المدينة مبنية من الحجر ، ومع ذلك توجد بعض المنازل المبنية من الطين يسكنها الفقراء ، وبداخل المدينة توجد منازل

كبيرة وجيدة، إلا أن الجزء الأكبر منها غير مستغل ومهمل، مما عرضها لهدم بعض أجزائها .

وبالنسبة لسكان مدينة القدس، فكما يشير فابرى إنها تعج بالعديد من الأجناس، ويكون العرب المسلمون الأغلبية العظمى من سكان القدس، وهم يميزون - فى رأى فابرى - جوهر الإله ويؤمنون أن لا إله إلا الله . ويأتى بعدهم اليونانيون، وهم مسيحيون لا يتبعون كنيسة روما، ثم السوريون واليعاقبة والأبيسنيا أو الأبيسنيون The Abyssinians أو الهنود، والنساطرة، هؤلاء فى رأى فابرى مسيحيون قد ضلوا الطريق ويتكلمون اللغة الكلدانية .

كما ذكر أيضا طائفة الأرمن وهم - فى رأيه - مسيحيون غارقون فى الأخطاء المتنوعة، ويوجد بينهم وبين اليونانيين خلافات مستمرة وحروب، وهم يتكلمون لغة خاصة بهم لها أبجدية خاصة . وقد عدد فابرى فئات أخرى من السكان مثل الجريجوريين، وهم طائفة مسيحية ورجال حرب منذ مولدهم، وهم مهابون فى كل أنحاء الشرق، أما عن طائفة المارونيين فهم - فى نظر فابرى - كفار لأنهم يؤمنون بالطبيعة الواحدة للمسيح، وهم يستخدمون الجرس فى كنائسهم مثل الكنائس الغربية . ومن فئات السكان التى ذكرها فابرى التركمان، وهم فى الأصل أتراك كانوا يعيشون فى قبائل همجية، ثم قاموا بغزو كل آسيا الصغرى وجزء كبير من آسيا الكبرى .

وأشار أيضا إلى وجود البدو من شبه الجزيرة العربية يقطنون القدس، كما أشار أيضا إلى وجود طائفة الحشيشية والباطنية .

ولم يفته الكلام عن فئة المماليك، كفئة متميزة حاكمة تملك وتحكم الشرق بأكمله بقوة السلاح . أما اليهود فقد ذكر فابرى أن عددهم فى مدينة القدس يبلغ أكثر من خمسمائة يهودى، ويؤكد على أن الاحتقار والبؤس الذى نالهم قد أدى إلى ضعف إدراكهم وفهمهم، وهم محتقرون فى كل أنحاء العالم، ولديهم طوائف عديدة فيما بينهم مثل سامورتيون (السامريون) والأسينز _ Essenes الأسينيون - وأنه لا يزال تظهر بينهم باستمرار بدع جديدة . أما بالنسبة

للمسيحيين اللاتين فهم أقلية يسكنون الكنيسة ودير جبل صهيون، ويبلغ عدد الطوائف المسيحية الأخرى أكثر من ألف مسيحى من كل طائفة وبلد .

وعن مصادر المياه فى مدينة القدس ـ كما رآها فابرى ـ فمعظمها من مياه الأمطار التى تجرى فى مجار مائية مبطنة ومستوية تميل من أعلى إلى أسفل، ويتجمع فيها ماء المطر، ويخزن فى أماكن معدة لتخزين المياه فى أحواض أو صهاريج وقنوات لصرف المياه، ولذلك فالمدينة لديها اكتفاء ذاتى من المياه .

وحين يتطرق فابرى إلى وصف المسجد الأقصى، يذكر أنه مبنى شريف وعظيم على شكل مستدير على طراز البرج العالى المتسع، وبداخل الجزء المستدير يوجد حائط آخر مبنى أو مقام على الأرض يحيط به كله وبين هذا الجزء والمسجد مساحة واسعة، ويدعم هذا الجدار من جانب واحد قبة تستند من الجانب الآخر إلى جدار المسجد، أما داخل المسجد فتوجد دائرة من الأعمدة الرخامية يكون مرتفا حول الدائرة، وعلى الحائط الخارجى توجد نوافذ مزججة مستطيلة الشكل مثل تلك التى فى الكنائس، والمسافة بين النافذة والأخرى كبيرة بحجم النافذة نفسها، وقد طليت هذه المسافة من الخارج بالفسيفساء ـ الموزيك ـ بشكل ثرى جدا، وطلى إطار الصورة بسطح من الذهب، بينما تحتوى الصورة على أشجار النخيل وأشجار الزيتون أو أشكال الملائكة، حيث لا يسمح بأى صور أخرى أو نحت على المساجد . أما الجزء المرتفع للمسجد الذى يعلو الأعمدة ويحيط بها، فقد بنى عاليا فى الهواء، وبارزا عن الجناح المحيط الواسع السابق ذكره، وفى هذا الجزء العلوى توجد نوافذ متصلة حوله كل واحدة تتصل بالأخرى . ولكنها أقصر وأصغر من تلك النوافذ فى الدور السفلى . وعلى قمة هذا المسجد يوجد سقف مغطى بالرصاص الذى كان مذهبا فى يوم ما، وفى أعلى قمة القبة يوجد هلال مثلما كان الوضع فى المساجد الأخرى، وحول المسجد من أسفل النوافذ المرتفعة يوجد ممشى، يقف عليه خدام المسجد يؤذنون بالنهار وبالليل، ويعلقون المصابيح المضاءة فى ساعات معينة، وفناء المسجد مبلط بالرخام الأبيض المصقول، وهو نظيف لدرجة أننا رأيناه من فوق قمة جبل الزيتون، وكأن المسجد

قائم فوق حوض من المياه البيضاء الهادئة . وينتهى التبليط بالرخام فى الناحية الجنوبية للفناء حيث توجد حديقة أو بستان من أشجار الزيتون بهيجة الشكل .

ويعلل فابرى وجود أشجار الزيتون فى هذا المكان لإمداد مصابيح المسجد بالزيت اللازم لإضاءتها، حيث يبلغ عددها أكثر من سبعمائة مصباح .

ويضيف فابرى أن هذه المشاهد الخاصة بوصفه للمسجد الأقصى من الخارج كما رآها، ولكنه يستنتج أن داخل المسجد مثل باقى المساجد التى شاهدها من قبل لا توجد بها صورة منحوتة ولا مقاعد خشبية مثل الكنائس، فلا يوجد غير المصابيح المعلقة، ولكن من روايات البعض يعرف أن بداخل المسجد صخرة ترتفع عن الأرض محاطة بحديد متشابك من كل جانب لا يجرؤ أى مسلم على الاقتراب منها .

لم يفت فابرى تسجيل انبهاره بكيفية تعامل المسلمين مع المسجد بكل الاحترام والتبجيل، فهم يجتهدون دائما للمحافظة عليه نظيفا ومنظما، ويقومون بغسله يوميا من الداخل والخارج، مما جعله يبدو دائما مصقولا ولامعا، والمسلمون لا يدخلون المسجد إلا بعد التطهر بالوضوء، ويمشون بكل وقار واحتشام، كل يمشى بمفرده كأنه سيد عظيم، وهم لا يتحدثون معا أو يحضرون أطفالهم أو الكلاب إلى المسجد . وقد خصص بابا خاصا للسيدات يدخلن منه بعيدا عن الرجال، وتصادف وجود السلطان المملوكى وقت زيارة فابرى للقدس، فقام بتسجيل هذه اللحظات، ووصف كيف قام خدام المسجد بغسل أرصفته بماء الورد، ثم قيامهم برش السلطان نفسه بنفس الماء قبل دخوله المسجد، وفى رأيه أن هذا نوع من أنواع التبجيل والتكريم والعظمة للمسجد وللسلطان .

وأشار فابرى مرة أخرى إلى سماحة حكم المسلمين لتركهم حرية الأديان، ومع ذلك فهم لم يسمحوا قط لأحد بالدخول إلى المسجد من الملل الأخرى . وعلى الرغم من ذلك التحريم، فإن العديد من المسيحيين قاموا بالمخاطرة وابتدعوا طرقا مختلفة للدخول ومشاهدة المسجد من الداخل .

بعد ذلك، ينتقل فابرى ليصف الجانب الجنوبى من المسجد الأقصى فيذكر وجود مسجد كبير و كنيسة متزايدة الجمال بنيت على طراز الكنائس الغربية وهو

يرجح أنها بنيت من زمن وجود الصليبيين، وأطلقوا عليها اسم كنيسة العذراء مريم، وأحيانا يطلقون عليها كنيسة التطهير أو معبد سيمون، كما يطلق عليها البعض معبد الرب، وآخرون يسمونها معبد زكريا ـ محراب زكريا ـ ويضيف أنها كانت مقر طائفة الداوية فى القدس، ثم تم تحويلها إلى مسجد .

وكما يذكر فابرى فهو الآن ـ أى وقت رحلته ـ مغطى بالرصاص، ويضاء فيه ليلا ثمانمائة مصباح، ويمتد أمامه فناء واسع، يوجد أسفله مبنى تحت الأرض مقبى ومميز يتسع حجمه لستمائة حصان . وبالقرب من هذا المسجد يوجد مسجد آخر ليس له فناء، ولكنه عظيم وثرى، ويوجد بداخله ثمانية وثمانون مصباحا فضيا . ويعتقد فابرى أن أول كنيسة بنيت فى القدس هى التى توجد على جبل صهيون، وذلك قبل بناء كنيسة القيامة وظهور النار المقدسة .

ولفابرى رأى خاص عن مدينة القدس، فهو يقول: إن ما تمتعت به القدس من مجد وشرف إنما يرجع إلى وجود كل من المسجد الأقصى وكنيسة القيامة ـ أهم الأماكن المقدسة ـ وبسبب هذين المكانين المقدسين نالها الكثير من المجد والإذلال على مر الأزمنة منذ العهد القديم وحتى هذا اليوم . وقد سجل فابرى استنكاره للحالة التى وجد عليها المسيحيين تحت حكم المسلمين من لامبالاة، وفى رأيه أنهم يستندون فى ذلك إلى ما يتمتعون به من حرية كاملة فى المرور من بلد إلى بلد لزيارة الأماكن المقدسة الخاصة بعبادتهم بدون خوف أو انزعاج أو ابتزاز، وهذا الكلام الذى جاء على لسان فابرى إنما هو ترجمة للواقع الذى يؤكد على الحالة السلمية والسماحة الدينية التى كان يتمتع بها المسيحيون فى الشرق الإسلامى، وإبطال مزاعم اللاتين لاستغلال هذه النقطة للدعاية السيئة ضد المسلمين وحكامهم . وعلى الرغم من هذا الكلام الواضح فى وصف الأشياء الإيجابية الخاصة بمعاملة المسيحيين الحجاج، وروح التسامح التى كانت سائدة، إلا أننا نجده فى كثير من الأحيان يظهر روح التعصب الأعمى لدرجة التشنج، واستخدام أسلوب متعصب فى كتاباته، واستخدام ألفاظ تسىء إلى الإسلام وإلى نبيه الكريم محمد ﷺ ولا تليق برجل فى ثقافة فابرى وعلمه، ولكن يبدو أن روح الداعية المبشر غلبت عليه، وحالت بينه وبين استخدام العقل فيما يقول وأخرجته

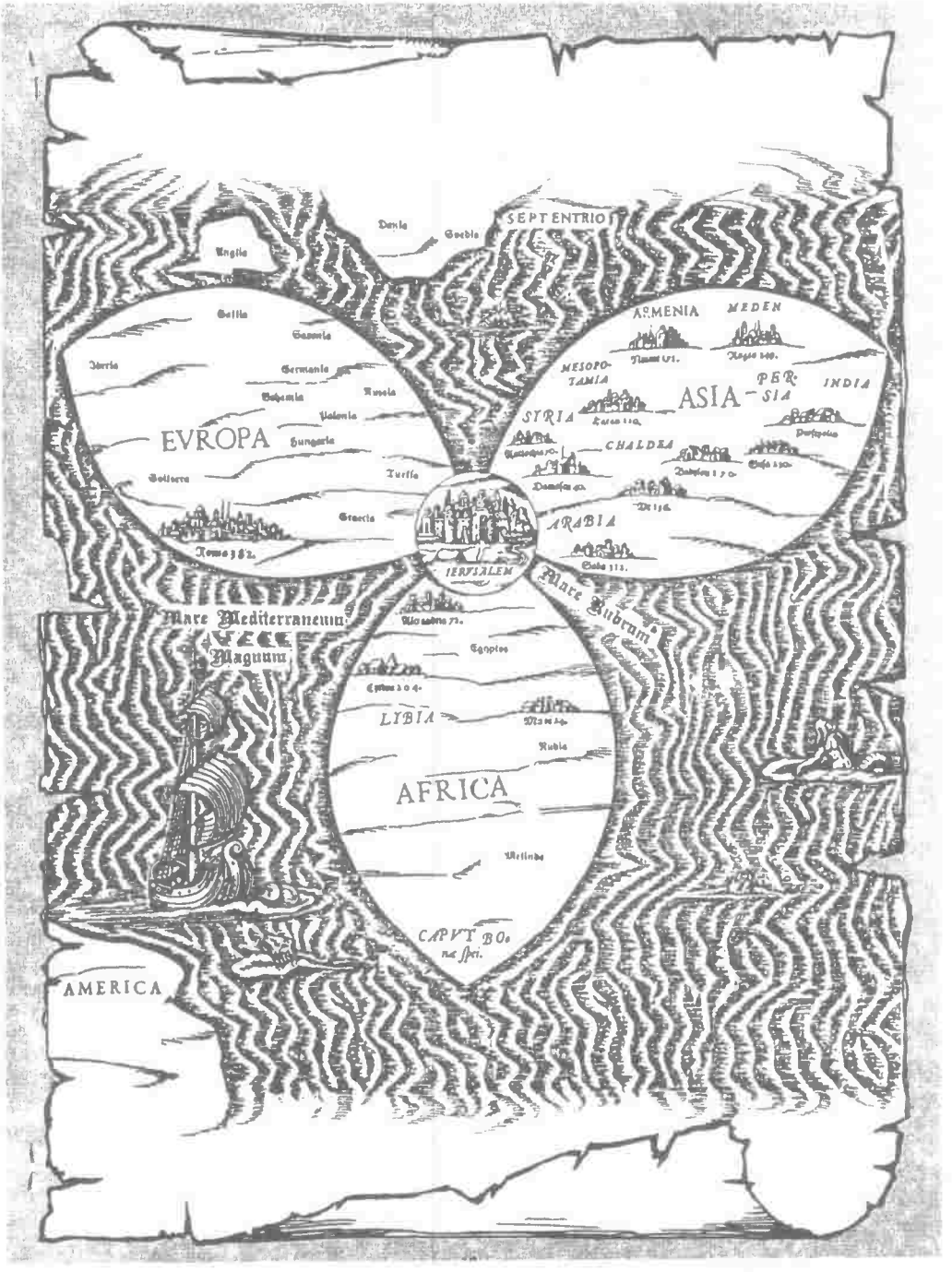

خارطة ألمانية من القرن السادس عشر تبين أن القدس هى مركز العالم

عن الصواب، فهل كان هذا بسبب طبيعة العصر المتعصبة ضد الإسلام، أم كان عيبا فى شخصية فابرى؟

وفى ختام هذا البحث، تسجل د. سهير نعينع رأيا نادى به فابرى، فربما يفسر هذا الرأى ما نعانى منه فى الوقت الحاضر. فهو يرى أن مدينة القدس قد عانت كثيرا من سوء الحظ نتيجة للتعصب الأعمى لليهود فى الدفاع عن معابدهم، ويرى أنهم إذا تركوا هذا التعصب الأعمى والحماس المتصلب المتزايد، لما أدى هذا إلى تدمير المدينة على يد الرومان والفرس فى أزمنة متلاحقة، وربما ينطبق هذا الرأى على اليهود فى الوقت الحاضر، فما زال هناك التعصب الأعمى والتصلب المتزايد الذى قد يؤدى فى النهاية إلى هدم عملية السلام ودخول المنطقة فى حرب لا يعلم مداها إلا الله.

على أية حال ترى د. سهير نعينع أن فيلكس فابرى تميز بكتابة رواية تميل إلى الدقة فى الوصف، والتدليل على صحة الأماكن التى رآها، ومقارنتها بما كتب فى المصادر التاريخية، وتميز فى نقل الأشياء التى رآها إيجابية كانت أو سلبية، ونجده يذكر ما تمتع به مسيحيو القدس من حرية وسماحة دينية، هذا علاوة على ذكره روح التسامح المسلمة مع باقى الأديان، مثل اليهودية، وأيضا بين الفرق والمذاهب الإسلامية الأخرى، وهذا يؤكد معرفته الواضحة بهذه المذاهب، والفروقات التى تميز كل مذهب عن الآخر، كل هذه الأشياء لم يستطع تعصبه إخفاءها فلم يجد غضاضة فى ذكر محاسن المسلمين التى رآها، وإظهار بغضه الشديد لليهود، وتسجيل مبررات هذا البغض من خلال نقد تصرفات اليهود السيئة بموضوعية مستشهدا فى ذلك بكتب التاريخ والكتاب المقدس ـ العهد الجديد ـ هذا علاوة على إلمامه بالتاريخ بشكل يفوق الوصف، ربما دعته إليه الحاجة لكتابة هذه الرحلة، ولكن يبدو أن استعانته بكتب التاريخ التى قام بتسجيل أسمائها قد تفوقت على سرد الرحلة نفسها، وألجأته أحيانا إلى الخلط بين ما رآه وبين ما يستمده من الكتب التاريخية، وأحيانا الأحداث الجارية التى جاءت بعد الانتهاء من رحلته وقام بتسجيلها فى كتابه ضمن أحداث الرحلة.

وأخيرا تسجل د . سهير نعينع لهذا الرحالة دقته فى وصف الأماكن الموجودة فى القدس من مبان دينية وأسواق ومبان عامة، فكثيرا ما كان يتحرى الدقة فى الوصف والمقارنة بين الموجود فيها وبين ما كان موجودا وتعرف عليه من خلال كتب التاريخ، فهو ينطبق عليه اسم الرحالة المؤرخ أكثر من الحاج أو الداعية المبشر، وربما كان لرحلته هذه قصد آخر . فقد ركز على الأماكن الدفاعية مثل الأسوار والأبواب والأبراج، ليس فى مدينة القدس وحدها، بل فى المدن الإسلامية التى زارها على طول رحلته إلى بيت المقدس، ومنه إلى سيناء، ثم القاهرة، ومنها إلى الإسكندرية مسجلا بدقة تامة ما يراه، ويؤكد هذا ما ذكره فى أول رحلته للوعد الذى قطعه على نفسه لإخوانه الرهبان من جماعة الدومنيكان التى مولت رحلته . وكما ذكرت فى أول هذا البحث عن احتمال وجود أغراض سياسية تجسسية لرحلته تميزت بها هذه الفترة . وقد أشار فابرى صراحة إلى سنة ١٤٨٨م كتاريخ كان يكتب فيه هذا الكتاب عن رحلته كما كان يذكر أسماء الكتب التى رجع إليها بشكل دقيق، والتى استقى منها معلوماته عن القدس، مؤرخا بذلك تاريخ القدس منذ القدم وحتى التاريخ الذى أنهى به كتابه . ومن إشارته إلى أحداث دير صهيون وما كان من أمر الخلاف بين اليهود والفرنسيسكان . فإن د . سهير نعينع ترى أن فابرى ربما أنهى كتابه قبل موته فى ١٥٠٢م / ٩٠٨ هـ بزمن قليل .

* * *

(٢) رحلة المبشرين الأمريكيين إلى القدس
(١٨٢٠-١٨٤٤)

كانت القدس محور اهتمام الدوائر التبشيرية الأمريكية فى مطلع القرن التاسع عشر، مما دفعها إلى إيفاد أول إرسالية إلى القدس فيما بين ١٨٢٠، ١٨٤٤، وقد غلب على عملها طابع التقصى والبحث، وجمع المعلومات عن المدينة المقدسة. وعلى الرغم من أن العمل التبشيرى - على الصعيد الدينى - لم يحقق النجاح المأمول، فقد قدم أعضاء الإرسالية الأمريكية فى القدس - من خلال تقاريرهم الميدانية أو جرائدهم التبشيرية - وصفا لبعض جوانب الحياة فى القدس - وبصفة خاصة الحياة الدينية - أسهمت فى معرفة بعض الجوانب الغامضة فى تاريخ هذه المدينة، وأبطلت بعض المزاعم اليهودية والصهيونية التى تدَّعى أن القدس هى أورشليم عاصمة الدولة اليهودية التلمودية، وذلك من خلال محاولة تزييف التاريخ، وإيهام العالم بأن وجودهم فى القدس كان دائما على مر العصور.

لقد وضعت كتابات المبشرين الأمريكيين فى القدس عدة حقائق تاريخية هامة فى مقدمتها:

١- أن غالبية سكان القدس كانوا من المسلمين.

٢- ضآلة عدد السكان اليهود فى القدس فى العقدين الثانى والثالث من القرن التاسع عشر بالقياس لعدد المسلمين.

٣- وجود عدد من السكان المسيحيين من العرب والأقباط والأرمن واليونانيين فى القدس يزيدون على عدد اليهود.

٤- غلبة الطابع الإسلامى على القدس من خلال انتشار المساجد والمصليات والمآذن بها .

٥- ضآلة الوجود الدينى لليهود فى القدس، والناتج عن قلة أعدادهم، تمثل فى ندرة معابدهم، وإقامتهم فى الجيتو بمنطقة ترابية مهملة .

٦- دحض المزاعم الصهيونية بوجود هيكل سليمان فى القدس .

٧- شيوع إطلاق الأسماء العربية على المدن والوديان والجبال فى القدس .

وهكذا يثبت التاريخ ـ بما لا يدع مجالا للشك ـ أن القدس قد ظلت عربية مسلمة طيلة تاريخها الحديث، ولم تكن ذات يوم من الأيام من أملاك اليهود .

ومن الدراسات المهمة التى كتبت حول هذا الموضوع نعتمد على دراسة د . محمد فؤاد خليل أستاذ التاريخ بجامعة القاهرة (فرع الفيوم) تحت عنوان «القدس من خلال كتابات المبشرين الأمريكيين فى القرن التاسع عشر»، والمنشورة فى كتاب بحوث مؤتمر مصادر تاريخ القدس ـ كلية الآداب ـ جامعة القاهرة ١٩٩٨م .

ولقد تشكلت البعثة التبشيرية برئاسة القسين ليفى پارسونز ـ Levi Parsons وپلينى فيسك ـ Pliny Fisk بهدف تنصير الطائفة اليهودية فى القدس، بالإضافة إلى جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات عن الطوائف الأخرى فى فلسطين، ودراسة إمكانيات العمل التبشيرى فى بعض البلاد الأخرى فى المنطقة .

وقد وصل پارسونز إلى القدس فى ١٧ فبراير ١٨٢٠م، بصحبة المترجم الخاص بالقنصل الروسى فى يافا، وظل بها حتى مطلع عام ١٨٢٢م، ثم أبحر مع زميله فيسك إلى مصر بغرض النقاهة، إلا أنه توفى فى الإسكندرية فى ١٠ فبراير ١٨٢٢م، فعاد فيسك إلى القدس- لإتمام عمل الإرسالية الأمريكية- فى ٢٥ فبراير ١٨٢٤م، بعد أن قضى عدة شهور متنقلا بين مصر ومالطة وسوريا، وقد اصطحب معه مبشرين جديدين هما چوناث كنيج ـ Jonas King والمبشر البريطانى ولف ـ Wolff عضو الجمعية التبشيرية البريطانية للعمل بين اليهود .

وقد ظلت هذه المجموعة بالقدس برئاسة فيسك حتى يونية ١٨٢٤ .

عندما قطع فيسك وكنيج رحلتهما إلى القدس توجها إلى البحر الميت ونهر الأردن، ثم زارا مصر وسوريا وجبل لبنان. وفى نهاية المطاف قام فيسك بزيارته الثالثة والأخيرة إلى مدينة القدس فى ٢٠ نوفمبر ١٨٢٤م، وقد اصطحب معه زميله فى الإرسالية كينج، بالإضافة إلى عضو جديد فى الإرسالية هو المبشر البريطانى القس وليام چويت ـ William Jowett عضو الجمعية التبشيرية البريطانية للعمل فيما بين اليهود، وقد ظلوا فى القدس لمدة سبعة أشهر، وهى أطول فترة قضاها المبشرون الأمريكيون فى المدينة بغير انقطاع خلال السنوات الخمس السابقة، وقد اتجهت الإرسالية إلى بيروت خلال عام ١٨٢٤م، ثم توفى المبشر فيسك هناك فى ٢٣ أكتوبر ١٨٢٥.

كانت وفاة فيسك تمثل عاملا سلبيا، ومع ذلك وعلى الرغم من أن الإرسالية الأمريكية فى القدس لم تتمكن من تحقيق أهدافها التبشيرية خلال تلك الفترة، من حيث إقامة محطات تبشيرية ثابتة فى القدس، فقد ظل الأمل يحدوها فى ذلك، وحاولت التعاون مع البريطانيين لتحقيق هذا الهدف، لكن جهودها قد باءت بالفشل، فانسحب الأمريكيون إلى لبنان وسوريا تاركين فلسطين للبريطانيين، بعد أن قضوا أربعة وعشرين عاما فى القدس فى الفترة من ١٨٢٠ إلى ١٨٤٤م.

وقد اتسمت فترة عمل الإرسالية الأمريكية بالقدس بجمع المعلومات وكتابة التقارير عن أحوال القدس، ووصف دقيق للحياة اليومية بها، وطوائفها الدينية، ومقدساتها، ومساجدها وكنائسها ومعابدها... الخ.

ويقدم د. محمد فؤاد خليل عرضًا وتعريفًا بالأوضاع المختلفة للقدس من خلال مصادر الإرسالية الأمريكية فى القدس فى النصف الأول من القرن التاسع عشر، والتى شملت التقارير الميدانية المرسلة من أعضاء الإرسالية إلى المجلس الأمريكى فى بوسطن (A.B.C.F.M) بالإضافة إلى الجرائد التبشيرية التى أصدرها فى القدس كل من پارسونز وفيسك وكينج وولف.

وعندما وصل المبشرون الأمريكيون إلى القدس فى عام ١٨٢٠م، كانت المدينة

تحت الحكم العثمانى، فقد كانت القدس صنجقية تابعة لباشا دمشق ـ أوباشا الشام ـ التركى، منذ الفتح العثمانى للشام فى عام ٩١٧هـ.

وألحق العثمانيون بصنجقية بيت المقدس ثلاث مدن هى: أريحا، وتقع إلى الشمال الشرقى، ثم بيت لحم، والخليل، وتقعان إلى الجنوب.

ويتضح من كتابات المبشرين الأمريكيين أن الحكم العثمانى كان متسامحا مع أفراد الطوائف الأخرى من غير المسلمين، كما تميز باشا دمشق ـ المسئول عن القدس ـ بعدالته، وحرصه على الاستقرار الدينى فى المدينة المقدسة.

فقد ذكر المبشر القس كينج فى جريدته بتاريخ أول أبريل ١٨٢٥م، تفاصيل الزيارة التى قام بها درويش باشا والى دمشق إلى القدس فقال: "لقد أقام خيمته بالقرب من باب يافا ـ أحد أبواب القدس ـ وهذه هى عادته كل عام والتى تستهدف دعم الروابط بين المسيحيين والمسلمين".

كما أورد المبشر ولف تفاصيل الحديث الذى دار بينه وبين المتصرف العثمانى للقدس فى تلك الفترة، أشار فيه إلى قبول المتصرف للهدية التى قدمها له المبشر، وكانت عبارة عن نسخة من الإنجيل، وأكد ولف للمتصرف أنه قرأ القرآن الكريم كله.

وأشارت التقارير أيضا إلى الزيارة التى قام بها الملا العثمانى إلى القدس فى ٢٥ مارس ١٨٢١م حيث التقى برؤساء الأديرة المسيحية المختلفة فى المدينة المقدسة، مما يثبت غلبة روح التسامح الدينى بين العثمانيين والمسيحيين. وعلى الرغم من أن الإشارات التى وردت عن العثمانيين فى تقارير المبشرين الأمريكيين كانت قليلة ومقتضبة، إلا أنها أثبتت حسن معاملة الأتراك العثمانيين لأعضاء الإرسالية الأمريكية، على الرغم من أن عملها من المنظور الإسلامى هو عمل هدام.

وفيما يتعلق بوصف مدينة القدس، فقد اهتم المبشرون الأمريكيون بأبوابها، وقدموا لنا تقارير ـ فى ذلك الإطار ـ تبين أسماء الأبواب، ومواقعها، وتاريخها، وأهميتها فى النصف الأول من القرن التاسع عشر.

«السبيل» فى باب السلسلة

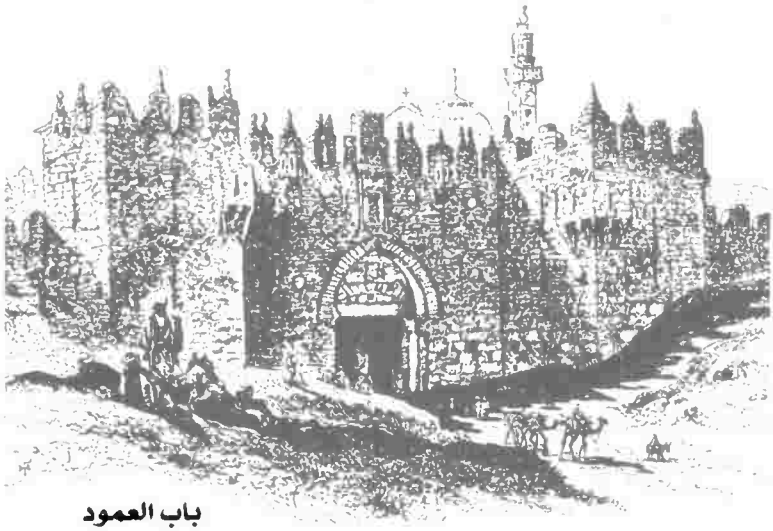

باب العمود

وقد قام المبشر القس پلينى فيسك باصطحاب عضوى الإرسالية القسين «كينج» و«ولف» وتوجهوا فى رحلة داخل القدس، وكتبوا تقريرا فى فبراير ١٨٢٤م، يصف مداخل ومخارج المدينة المقدسة، جاء فيه ما يلى:

بالقرب من الحائط الغربى للمدينة، توجد بوابة يافا وتسمى أيضا بوابة الخليل أو بوابة بيت لحم أو بوابة الحج، أما فى الحائط الجنوبى الغربى للقدس فهناك بوابة صهيون أو داود، كما توجد فى الحائط الشرقى بوابة ستيفن، أو الأسباط أو السيدة مريم، وتوجد بوابة دمشق فى الحائط الشمالى الغربى، وهذه هى البوابات الأربع الرئيسية للمدينة، وهناك بوابتان أخريان صغيرتان يسمى المسلمون إحديهما بوابة المغاربة وتقع فى الحائط الجنوبى والأخرى بوابة هيرودس، وتقع فى الحائط الشمالى، كما توجد فى الحائط الشرقى بوابة أخرى هى البوابة الذهبية».

ونلاحظ فى هذا التقرير أنه لم يكن هناك أى باب من أبواب القدس يحمل اسما عبريا، ولو كان يوجد لما توانى المبشرون الأمريكيون عن ذكره، إلا إذا اعتبرنا أن باب صهيون أو داود اسم عبرى، وذلك مردود عليه بأن العرب لا يزالون يستخدمون نفس الاسم حتى اليوم، وليس هناك دليل يوحى بأنه يثبت حقا تاريخيا معينا لليهود فى القدس، ولا بد من الإشارة إلى أن أحد هذه الأبواب السبعة يحمل اسما مسيحيا وهو باب ستيفن ـ أحد أتباع المسيح عليه السلام ـ ولم يعط ذلك حقا للمسيحيين فى القدس.

ومما هو جدير بالذكر أن الأسماء العربية قد غلب إطلاقها على أبواب القدس، فقد ذكر التقرير السابق عدة أبواب للمدينة تحمل أسماء عربية وهى:

١- باب دمشق.

٢- باب المغاربة.

٣- باب الخليل أو الحج أو يافا.

ويبدو واضحا من ذلك غلبة الطابع العربى على مدينة القدس فى العقد الثالث من القرن التاسع عشر، بموجب تقارير المبشرين الأمريكيين.

وعندما نتطرق إلى المصطلحات الجغرافية التى استخدمها أعضاء الإرسالية الأمريكية فى القدس، فسوف نلاحظ استخدامهم للأسماء العربية ـ التى كانت سائدة وقتذاك ـ فى وصفهم لمدينة القدس وأوديتها، بل وجبالها، فقد درج المبشرون الأمريكيون على استخدام كلمة فلسطين بمدلولها الجغرافى المعروف، أى التى تمتد من البحر الميت شرقا إلى البحر المتوسط غربا، ومن بحيرة طبرية أو عكة فى الشمال الشرقى والشمال الغربى إلى صحراء النقب فى الجنوب الغربى، بمعنى آخر كانت فلسطين بالنسبة لهم تشمل كلا من:

القدس أو عكا وحيفا ويافا وغزة والبحر الميت وبحيرة طبرية. ومن النماذج التى نسوقها من كتابات المبشرين الأمريكيين المتعلقة بهذا الموضوع، تقرير كتبه المبشر پارسونز من القدس فى ٢٢ فبراير ١٨٢٠م ذكر فيه أنه توجه «فى زيارة إلى جبل الزيتون ـ الذى كان المسيح يقف عليه لإلقاء مواعظه على حواريه ـ وقد سار من باب دمشق، ومر فى طريقه على كهفين، يطلق على الأول كهف المسيح والثانى كهف السيدة مريم».

وأهم ما فى هذا التقرير أن پارسونز قد ذكر أنه هبط فى طريقه إلى جبل الزيتون بمنطقة وادى «قدرون».

ونلاحظ هنا أن المبشر پارسونز قد استخدم الاسم العربى لهذا الوادى والذى يسمى أحيانا أخرى ـ بالعربية أيضا ـ وادى «مجدون» أو وادى جهنم فى شرقى القدس، ووادى الربابة من الجهة الجنوبية، ووادى الزبل من الجهة الغربية، والأمر الذى يعنينا أن هذا السياق يبطل الحقوق اليهودية المزعومة فى الوادى، حيث يطلقون عليه بالعبرية «هر مجدون» وفقا لأسفار كتبهم أى جبل مجدون.

وننتقل الآن إلى موضوع مهم تناولته كتابات المبشرين الأمريكيين فى القدس، وهو عن سكان القدس خلال العقود الثلاثة الأولى من القرن التاسع عشر.

ومن المعروف أنه نظرا للمكانة الدينية الكبيرة للقدس، ووجود عدد من المقدسات الدينية بها لدى المسلمين والمسيحيين، فقد سكنته أعداد من الديانتين، بالإضافة إلى أقلية يهودية ضئيلة، فى النصف الأول من القرن التاسع عشر.

وبالنظر إلى أن هدف الإرسالية الأمريكية الرئيسى كان تنصير سكان القدس، وبخاصة اليهود، فقد تركز اهتمامها على جمع أكبر قدر من المعلومات عن أصحاب الديانات الثلاث، من حيث أعدادهم ومذاهبهم ودور عباداتهم ومقدساتهم الدينية، وقد قدموا لنا معلومات قيمة ومثيرة للجدل، تتعلق بهذه الموضوعات فى تقاريرهم وجرائدهم التبشيرية.

وفيما يتعلق بالمسلمين، فقد ذكر المبشر فيسك أن الإرسالية قد نجحت فى التوصل إلى تعداد عام لسكان القدس خلال عام ١٨٢٤م وتوصلت إلى أنهم بلغوا عشرين ألف نسمة وأن نصفهم - أى عشرة آلاف نسمة - من المسلمين.

وقد عاد فيسك فى نفس التقرير المشار إليه آنفا، وذكر أنه يعتقد أن «الجزء الأكبر من سكان المدينة - أى القدس - هم من الأتراك والعرب» مع أنه لم يحدد أعدادهم من بين المسلمين، فاكتفى بوضع تعداد عام للمسلمين.

على أية حال، فيرى د. محمد فؤاد خليل أن هذا التعداد يأتى من مبشر مسيحى، يهدم تماما الأطروحات الصهيونية فى هذا الشأن، فقد دأب المؤرخون الإسرائيليون والأمريكيون على وضع تقديرات غير دقيقة لعدد السكان المسلمين فى القدس فى تلك الفترة مقارنة بعدد المسيحيين واليهود، فنجد مبالغة فى زيادة عدد اليهود، ومحاولة لإنقاص عدد المسلمين، وبينما أثبت المبشر الأمريكى أن عدد المسلمين كان عشرة آلاف نسمة فى تلك الفترة، فقد ذكر المؤرخون أن عددهم كان أربعة آلاف نسمة فقط، من بين عدد سكان القدس الذين قدروهم بأنهم كانوا نحو تسعة آلاف نسمة، وهو أمر - مما لا شك فيه - يستهدف دعم المخطط الصهيونى الرامى إلى تهويد القدس، وإعطاء صورة تبرز اليهود وكأنهم كانوا متوازنين - من الناحية العددية- مع المسلمين، فيما يوحى بأن وجودهم فى القدس لم ينقطع خلال التاريخ الحديث وهذا ليس حقيقيا.

وقد ذكرت تقارير الإرسالية الأمريكية أن العرب والأتراك كانوا يعيشون فى مناطق عديدة من القدس «فتجدهم فى الطرف الشرقى منها، حيث ينتشرون فى كل مربع بها، كما يتمركز جزء منهم فى «بيزيتا»، بالقرب من باب الساهرة فى الحائط الشمالى للقدس.

أما فيما يتعلق بالمقدسات الإسلامية فى القدس فى تلك الفترة، فقد أثبتت التقارير غلبة الطابع الإسلامى على المدينة، فأشارت إلى الانتشار الواسع للمساجد والمصليات والمآذن فيها.

فقد ذكر بارسونز فى تقرير له من القدس بتاريخ ٢٢ فبراير ١٨٢٠م أنه قد شاهد مسجدا مقاما أعلى قبور النبى داود والأسباط فوق جبل صهيون (داود)، كما ذكر فى تقرير آخر فى ٢ مايو ١٨٢١م أنه يوجد فى القدس أحد عشر مسجدا للمسلمين.

أما المبشر فيسك فقد ذكر أنه شاهد مسجد عمر وعدة مساجد أخرى بالقرب من المنطقة السكنية لليهود بين جبل صهيون وجبل موريا، كما ذكر أنه شاهد أربع مآذن، اثنتين فى بيزيتا، وواحدة فى أكرا وواحدة فوق جبل داود، كما أنه شاهد اثنتين فى موضع الصلب ـ حسب اعتقاده ـ فى مواجهة القبر المقدس، وقد اختتم تقريره قائلا «إنك لا ترى فى القدس مسجدا فحسب، ولكنك ترى مجموعة من المساجد والمصليات، منها اثنان رئيسيان يسمى أحدهما المسجد الأقصى، والآخر مسجد قبة الصخرة».

أما فيما يتعلق بالطوائف المسيحية فى القدس خلال نفس الفترة، فقد أبرزت تقارير الإرسالية الأمريكية وجود عدد منها فى المدينة، وأشارت إلى إقامة بعضها بصفة دائمة، وإلى إقامة البعض الآخر بصفة مؤقتة؛ بغرض الحج إلى الأماكن المسيحية المقدسة.

على أية حال، فإنه وإن بدا غلبة السمة المسيحية على القدس ـ من واقع كتابات المبشرين الأمريكيين ـ فلا بد ألا نغفل المنطلق العقائدى لهم، فهم يعتبرون أنفسهم من المسيحيين المخلصين المتدينين.

وفى ظل هذا الاضطراب الواضح الذى وقع فيه المبشر الأمريكى من أجل وضع تقدير دقيق لعدد اليهود فى القدس فى تلك الفترة، يبدو كما يقول د. محمد فؤاد خليل أن عددهم كان أقل بكثير من الآلاف الثلاثة التى ذكرها بارسونز، استنادا إلى التقديرات التى كان قد حصل عليها من بعض اليهود، فمما لا شك فيه أن كل طائفة تسعى إلى المبالغة فى تعداد أفرادها؛ حتى لا تتأثر

وضعيتها فى المجتمع بقلة عددهم من جهة، بينما نجد أن من مصلحة پارسونز ـ بصفته مبشرا ـ المبالغة فى عدد اليهود أو أى طائفة أخرى؛ حتى يتسنى له إقناع المؤسسات التبشيرية الأمريكية بالاستمرار فى تمويل إرساليته التى كانت موجهة إلى القدس فى المقام الأول من جهة ثانية، وإن كنا لا نغفل احتمال تعرض پارسونز للخداع وعدم الدقة فى استقصاء المعلومات الصحيحة من جهة ثالثة.

ومهما يكن من أمر، فقد جاء فيسك وذكر تعدادا أكثر مبالغة من تعداد پارسونز، فكتب خلال عام ١٨٢٤م «إن اليهود يبلغون ستة آلاف نسمة من إجمالى سكان القدس البالغ عددهم عشرين ألف نسمة، وإن نصف هذا العدد من المسلمين».

كما ذكر فيسك أنه قد علم من بعض اليهود فى القدس «أنهم ينقسمون إلى قسمين: القسم الأول يتألف من ستمائة (٦٠٠) أسرة من السفارديم ـ اليهود الشرقيون الإسبان ـ أما القسم الثانى فيتألف من خمس وعشرين أسرة من الأشكانيزم ـ اليهود الغربيون البولنديون ـ».

وقد قدم المبشر الأمريكى القس ولف تعدادا جديدا لليهود فى القدس فى نفس العام، فذكر أنه حصل على معلومات تتعلق بعدد اليهود، حصل عليها من أحد أحبارهم، وبموجب ذلك فقد علم أن هناك سبعمائة أسرة يهودية فى القدس، وهم ينتمون إلى عدة مذاهب. فمنهم اليهود الفريسيون ـ وبخاصة فيما بين الأشكانيزم ـ بالإضافة إلى مجموعة من اليهود الصدوقيين.

وفى ظل هذا التباين فى كتابات المبشرين الأمريكيين لوضع رقم دقيق لعدد اليهود فى القدس خلال العقود الثلاثة الأولى من القرن التاسع عشر، فلا بد كما يقول د. محمد فؤاد خليل أن نتوقف قليلا لاستنباط الرقم الحقيقى بعدد اليهود فى القدس خلال تلك الفترة.

فإذا سلمنا بأن متوسط الأسرة اليهودية ـ فى أحسن الأحوال ـ يبلغ أربعة أفراد، فسنجد أن مجموع أفراد الـ ٦٢٥ أسرة التى ذكرها فيسك يبلغ ٢٥٠٠ نسمة، كما أن عدد الـ ٧٠٠ أسرة التى ذكرها ولف سيصبح ٢٨٠٠ نسمة، هذا إذا وضعنا فى الاعتبار أن اليهود لا يميلون عادة إلى كثرة الإنجاب وهى مشكلتهم التاريخية الدائمة.

على أية حال، فإن المؤرخين الإسرائيليين لم يتمكنوا من أن يقدموا لنا رقما محددا عن عدد اليهود فى القدس فى تلك الفترة، فحاول بعضهم تضخيم العدد حتى يثبتوا وجودهم المستمر فى المدينة خلال القرن التاسع عشر، وهو القرن الحاسم فى تاريخ القضية الفلسطينية، وتراوحت تقديراتهم ما بين ٢٠٠٠ و٣٠٠٠ نسمة، فإذا وضعنا فى الاعتبار هذا العامل الأخير، فسوف يصبح من المرجح أن عدد اليهود فى القدس خلال العقد الثالث من القرن التاسع عشر كان أقل بكثير من الألفين، بل سيكون من المبالغة أن نجزم بأنهم كانوا يقدرون بألف نسمة، ولعل ما ذكره المبشران الأمريكيان فيسك، وكينج خلال عام ١٨٢٤م، عن المنطقة السكنية لليهود فى القدس، يثبت ضعف وجودهم فى المدينة أيضا فى تلك الفترة، فقد ذكرا «أن اليهود يعيشون فى منطقة ترابية تقع بين جبل صهيون وجبل موريا»، ويبدو أن ذلك كان هو الجيتو الذى أقام فيه اليهود خارج نطاق المنطقة المأهولة بالقدس، وقد تميز بأنه منطقة ترابية غير ذات قيمة من الناحية الطبيعية أو البشرية، أى هى أقل من المناطق العشوائية.

وفيما يتعلق بمعابد اليهود فى القدس، فقد ذكر المبشر ولف: «أنه علم أن اليهود كان لديهم خمسة معابد فى القدس خلال عام ١٨٢٤م»، ولم يذكر مواقعها.

أما عن مقدساتهم الدينية فى القدس، فقد أشارت كتابات المبشرين الأمريكيين إلى قبور أنبياء وملوك إسرائيل على أنها موجودة فى جبل صهيون، ومع ذلك فقد أثبتت الإرسالية الأمريكية أنه لم يكن هناك أى وجود لهيكل سليمان الذى يزعم اليهود وجوده أسفل المسجد الأقصى، فلم يجزم پارسونز وغيره من زملائه بوجود الهيكل المزعوم، ولو كان موجودا بالفعل لما توانى عن ذكره، كما أن جويت ـ عضو الإرسالية الأمريكية ـ لم يثبت هو الآخر وجود الهيكل على الرغم من محاولته ذلك، فذكر ـ فقط ـ أن مسجد عمر مقام فى مكان جميل فوق موقع هيكل سليمان، وهذا من ضمن الدعاوى المساندة لليهود فى ذلك الموقع، ومع ذلك فلم يدَّع أحد من المبشرين الأمريكيين وجود الهيكل فى القدس.

(٣) رحلة الكاتب الفرنسى شاتوبريان إلى القدس (١٧٦٨-١٨٤٧)

فرانسو رينيه دى شاتوبريان (١٧٦٨ - ١٨٤٧م) كاتب وسياسى وشاعر فرنسى شهير، فهو رائد المدرسة الرومانسية فى الأدب الفرنسى، من مواليد سان مالو بغرب فرنسا لأسرة عريقة، وعرف بنشاطاته الفكرية السياسية، وبرحلاته المتعددة، وعين فى عام ١٨٠٣م فى منصب دبلوماسى فى روما ممثلا للحكومة الفرنسية، بعدما سجن واضطهد بسبب مشاركته فى حرب الأمراء ضد الجمهورية، واستقال فى العام التالى (١٨٠٤م)، وبدأ رحلاته عام ١٨٠٦م إلى القدس وبلاد أخرى، وانكب على تأليف الكتب، ومنها كتاب «الشهداء» الذى جمع فيه ملاحظات وقصاصات وانطباعات من رحلة كان قد قام بها بين عامى ١٨٠٦ - ١٨٠٧م إلى الشرق الأدنى، جامعا كل ذلك فيما بعد فى كتاب عرف بـ «المسار من باريس إلى القدس» وصدر للمرة الأولى فى عام ١٨١١م واعتبر الكتاب قمة من القمم فى أدب الرحلات فى فرنسا.

قسم شاتوبريان كتابه إلى سبعة أقسام، ليتحدث فى كل قسم منها عن منطقة أو مدينة من المناطق التى زارها. فى القسم الأول يتحدث عن اليونان، حيث انطلق منها، وفى الثانى، يتحدث عن الأناضول والأستانة، وفى الثالث، ينتقل بين جزيرة رودس ومدينتى يافا وبيت لحم الفلسطينيتين حتى البحر الميت، ويخصص الرابع كله لمدينة القدس، ويسميها «أورشليم» ولأهمية المدينة يتردد كثيرا فيفرد الخامس للحديث عن القدس أيضا، وفى القسم السادس ينتقل إلى مصر حتى يصل فى السابع إلى تونس.

من الواضح أن شاتوبريان كان مترددا بعض الشىء فى نشر تفاصيل تلك

الرحلة فى كتاب، إذ إنه بعد ما نشر «الشهداء» فى العام ١٨٠٧م محملا إياها عناصر كثيرة مما جمعه من انطباعات وأفكار وصور خلال أربعة أعوام، قبل أن يقرر فى نهاية الأمر نشر الكتاب.

الكتاب مجموعة نصوص وتأملات تؤكد رؤية شرقية كان شاتوبريان حازها من قبل، فهو قد أغرم بالشرق وروحانيته وسحره منذ زمن، وقبل سفره إلى الشرق، انكب على المكتبات وعلى كتب التاريخ ولوحات الفنانين وعلى قراءة «ألف ليلة وليلة» وعلى مراجعة كل حرف خطه قلم عن الشرق البعيد القريب الساحر المتعب، وعندما سافر كان يعرف ماذا ينتظره، ويجد القارئ اختفاء روح الاكتشاف والفضول فى كتابه، بل هناك إحساس من يتجول فى أرض يعرفها، وغابت الدهشة والمتعة، وإنما بدأ الكتاب مفسرا محملا بالحقائق والوقائع التاريخية التى قد تتناقض تفاصيل بعضها مع عفوية المنظر وجلاله.

غير أن رؤية شاتوبريان الروحية لهذا الشرق، وإمعانه فى إيراد التفاصيل الطريفة يأتى ضمن سياق ما يقوم به إلى الشرق نوع من الحج إلى مهد الحضارات القديمة، والوقوف على الأطلال لتصور ماضيها وأخذ العبَر منها.

إن شاتوبريان يبدو مستمتعا فى بعض الأقسام، لا سيما حين يذكِّره موقع ما بأحداث روحية أو تاريخية أو دينية خاصة فى القدس، فهو يعرف جيدا أن هذه المنطقة هى مهد الأديان السماوية، حيث كل حجر وكل نهر وكل بقعة تذكره بالأديان.

أفسح هذا الكتاب فرصة المنافسة لدى الذين زاروا الشرق، وأرادوا أن يحاكوا هذا الكتاب، ويتفوقوا عليه، من بينهم دى نرفال، وفلوبير، لكن الوحيد الذى اقترب منه، كان كاتبا من نوع آخر، إنه خادم شاتوبريان، يدعى چوليان الذى رافقه فى الرحلة، وكان يدون كل ما يشاهده فى كل لحظة، إلى أن أصبح كتابا لم ينشر إلا فى العام ١٩٠١م بعنوان «جوليان خادم شاتوبريان».

***

خاتمة

المؤرخون والجغرافيون العرب
وتوثيق عروبة القدس

أولا: دور المؤرخين العرب

برغم ما صنف وألف العلماء والمؤرخون العرب حول القدس منذ القرون الأولى للحضارة العربية ـ وخاصة فى العصور الوسطى ـ فإن الأجيال الحديثة من أبناء القرن العشرين لم تقدم إلا نتاجا متواضعا فى هذا المجال، وإن كنا نشير بجدارة إلى عدد من الأعمال التاريخية الهامة، ومنها كتاب عارف العارف (تاريخ الحرم القدسى ـ ١٩٤٧)، وكتاب (تاريخ القدس ـ ١٩٥١)، و (المفصل فى تاريخ القدس ـ ١٩٦١)، وكتاب د. كامل جميل العسلى عن معاهدة العلم فى بيت المقدس (١٩٨١)... الخ

ومن الأهمية بمكان أن يبادر المؤرخون العرب بالاهتمام بالقدس تأليفا وتحقيقا ونشرا، خاصة وأن تراثنا نفيس فى هذه المدينة، ولا بد من المبادرة لإنقاذ هذا التراث من الكتب والوثائق والمخطوطات، وهى فى وضع سيئ للغاية.

وليس صحيحا الرأى القائل: إن العمل لإنقاذ التراث لا يمكن أن يتم إلا بعد تحرير المدينة؛ لأن عملية التحرير قد تستغرق وقتا فى مواجهة الأخطبوط الصهيونى، والانتظار قد يؤدى إلى اندثار وضياع وسرقة التراث، وهذه كارثة حضارية، وإذا كانت القوة هى العنصر الحاسم فى معركة التحرير، إلا أن القوة بحاجة إلى تعبئة فكرية وإعلامية لدحض الادعاءات والمزاعم الصهيونية حول القدس.

ولا شك أن توفير المؤلفات والموسوعات الموثقة والمؤكدة للحق العربى فى القدس، وإدراجها ضمن وسائل الإعلام والتثقيف ومناهج التعليم ينشط ذاكرة هذا الجيل، ويعظم من وعيه بقضية القدس.

والوعى بعروبة القدس لدى الجيل الجديد يعطى لقضية المدينة المقدسة دفعة قوية لمسألة تواصل الأجيال فى تحمل مسئولية قومية مقدسة يجب أن تحظى بأولوية متقدمة على غيرها من المسائل والقضايا والهموم الأخرى.

والوعى بعروبة القدس لدى الجيل العربى الجديد يعد من ناحية أخرى محورا رئيسيا لمواجهة مزاعم زعماء إسرائيل، ابتداء من بن جوريون إلى شارون، والرد عليها وتفنيدها.

والرد على مثل هذه المزاعم لا يقتصر على القول بأن العرب هم بناة القدس فحسب، وإنما أيضا حماة مقدساتها على مر العصور، حيث لم يفارقها العرب طول سنوات التاريخ الطويل، وظلوا شعبها الأصيل، وحكامها أطول حقب التاريخ منذ أقدم العصور.

وللأسف فإن هناك عشرات ومئات الكتب التاريخية عن القدس لا تزال مخطوطات، ولم تحقق كتابتها حتى الآن، وعلى سبيل المثال: فإن مخطوطة أتحاف الاخصا بفضائل المسجد الأقصى من تأليف عبد الله شمس الدين السيوطى فى القرن الرابع عشر لم تحقق إلا فى بداية الثمانينيات من القرن العشرين.

وهناك أيضا وثائق القدس التى لم يكشف النقاب عنها.. ناهيك عن المسروقات الإسرائيلية لمثل هذه الوثائق منذ عام ١٩٤٨م وبالتحديد منذ عام ١٩٦٧.

ونشير بصفة خاصة إلى الاقتحام الإسرائيلى للمحكمة الشرعية فى القدس عام ١٩٩١م وسرقة وثائق تتعلق بالأملاك الوقفية، وشهادات تؤكد عروبة القدس.

وجاءت تلك الواقعة وغيرها لتدق ناقوس الخطر حول بعثرة وثائق المدينة

المقدسة . . ولا عجب أن يعثر أستاذ جامعى عربى على وجود ٨٨٣ وثيقة من وثائق الحرم القدسى الشريف فى العصر المملوكى، وذلك داخل درجين فقط من أدراج خزائن المتحف الإسلامى بالقدس، وذلك عام ١٩٧٤م، وتم نشر هذه الوثائق عام ١٩٨٥ فى حوليات كلية الآداب بجامعة الكويت.

وسجل المؤرخ د. محمد عيسى صالحية أهمية تلك الوثائق فيما يلى:

أولا: إن الوثائق تقدم مادة خصبة للمهتمين بالتاريخ الاجتماعى والاقتصادى، فوثائق الإرشاد الحَشْرى وهى التى تبدأ بعبارة «حصل الوقوف على . . .» وأشهد على نفسه تسجيل كل ما يملكه المتوفى من ملابس وأدوات وأثاث، مع الإشارة إلى مهنة المتوفى، كأن يكون نساخا أو نساجا أو قصابا أو خياطا أو شيخا فى زاوية أو دَلالا. ويثبت فى الوثيقة كل الأدوات التى وجدت عنده، وإن كانت المتوفاة امرأة سجلت أدواتها بما فيها من أدوات زينة وحلى وأثاث، ومثل هذا يعطى صورة جيدة عن طبيعة الحياة الاجتماعية والاقتصادية لمجتمع بيت المقدس فى عنصر الوثائق على الأقل.

ثانيًا: إن الوثائق تضيف إضافة متميزة لما هو معروف من ملابس الرجال والنساء، ويقينى أن كلا من دوزى ومايرا لو كانا قد اطلعا على الوثائق لتغيرت الصيغة النهائية لأبحاثهما عن الملابس فى العصر المملوكى.

ثالثًا: إن الوثائق تغدو مهمة إذا ما أريد إعادة تشكيل الهيكل التنظيمى لمدينة القدس، فالأماكن الجغرافية من دور وزوايا وأسواق وخانقاوات ومساجد وغيرها، المذكورة فى الوثائق، غالبا ما تحدد من جهاتها الأربع، ويؤكد الموقع فى المدينة بذكر الخط أو الحارة الواقعة فيه، فلو رتبت تلك الأماكن الجغرافية ونسقت لأمكن رسم خريطة للمدينة فى العصر المملوكى.

رابعًا: تشكل الوثائق شيئا لمن يرغبون فى دراسة مؤسسة ديوان المواريث الحَشْريّة ببيت المقدس، فيتناولون عمل وتطور وتنظيم الديوان، وأعتقد أن مراجعنا تخلو من مثل تلك الدراسة المتخصصة.

خامسًا: يستطيع الباحث أن يدرس الأحوال الثقافية فى بيت المقدس فى العهد المملوكى، ويتعرف على أسعار الكتب والملابس وأدوات الأثاث، وذلك من خلال وثائق بيع التركات والتى جاءت تحت عنوان «مخزومة»، أو ورقة مباركة، والتى كانت فى معظمها تخص علماء المدينة.

سادسًا: تلقى الوثائق أضواء على الحياة الصوفية فى المدينة المقدسة، وخاصة صوفية الخانقاة الصلاحية، فقد حظى أحد صوفيتها بتسعة مراسيم، حيث عين برهان الدين إبراهيم الناصرى كمقرئ إمام الصخرة المشرفة أو إمام مدرسة مولانا القاضى أو فى المدرسة الطازية وغيرها.

سابعًا: نعتقد أن الوثائق حوت أكبر مجموعة من اختصارات الأعداد ـ خط السياقة المملوكية ـ ويفيدنا حل هذه المختصرات فى إعادة النظر فى كتب الرياضيات ـ وخاصة الحساب والجبر والمقابلة ـ المصنفة فى العصر المملوكى، حيث إن معرفة حل المختصرات من الأعداد تعيق النشر والتحقيق عند الكثير من الباحثين.

ثامنًا: إن الوثائق تظل ذات أهمية بالغة فى مجال الدراسات اللغوية والأدبية والإدارية، ذلك أن بعض الوثائق استعملت فيها اللغة العامية الدارجة، وهذا يفيد فى فهم تطور اللغة ومصطلحاتها.

ولكن بقى علينا إعادة ترتيب أوراقنا ووثائقنا التاريخية المبعثرة تحسبا لاحتمال عرض قضية القدس للتحكيم الدولى، وعندئذ تبدو أهمية تضافر جهود المؤرخين مع الجغرافيين والقانونيين العرب فى إعداد وثيقة الدفاع عن هوية القدس العربية، ولقد سبق أن كسبنا قضية تحكيم ملكية حائط البراق عام ١٩٣٠م أمام اللجنة الدولية التى أقرت وثائقنا التاريخية ودفاعنا القانونى عن الحائط.

وهكذا تبدو أهمية مؤتمر مصادر تاريخ القدس المعقود بكلية آداب القاهرة، وما أحوج قضية القدس إلى مزيد من عطاء رجال الجامعات المصرية والعمل على تنفيذ ما طالب به المؤتمر العام لأعضاء هيئات تدريس الجامعات (١٩ يوليو ١٩٩٠) بشأن إنشاء مركز دولى للقدس يتولى عرض قضية القدس فى المحافل

الدولية وتعريف الشعوب والحكومات بما تحتويه من مقدسات، وبأصولها العربية العريقة.

وهنا تبدو أهمية العمل الموسوعى بشأن القدس.. وخير نموذج لهذا العمل هو مبادرة الإعلامى الفلسطينى الأستاذ فؤاد إبراهيم عباس الذى واصل بمفرده منذ بداية التسعينيات فى إعداد وإصدار موسوعته (موسوعة بيت المقدس).

والمحقق الفلسطينى فؤاد إبراهيم عباس بهذا العمل الموسوعى غير المسبوق يختصر بمفرده عمل مؤسسة كاملة، ويقدم نموذجا أمثل لرسالة الإعلامى العربى الفلسطينى الذى يدين للقدس بعلمه وثقافته.

وحدد فؤاد إبراهيم عباس أهم أهداف هذا العمل الموسوعى فى مقدمة الجزء الأول فيما يلى:

أولا: تثبيت الحق العربى الفلسطينى فى القدس، وبيان أن تصدى أهل القدس للهجمات ضد وطنهم عبر حقب التاريخ، إنما هو تعبير جاد وفعال عن حفظ الأمانة التى أودعها الله فى هذا الشعب لسدانة القدس أولى القبلتين، وثالث الحرمين الشريفين، ومسرى نبينا محمد عليه الصلاة والسلام، أى أن نضالهم كان على الدوام تكريما لمبدأ حتمية الحفاظ على التراث الروحى للأديان فى أرض المقدسات، كما أن هذه الموسوعة تواكب مطالبة الشعب الفلسطينى الآن بسلام عادل وشامل فى حل القضية الفلسطينية، التى هى جوهر الصراع فى الشرق الأوسط.

ثانيا: تأتى هذه الموسوعة تلبية للنداءات المتكررة لمئات المؤتمرات التى عقدت تحت اسم القدس لحفظ وصون تراثها، وأن جنوح الشعب الفلسطينى إلى السلام فى الوقت الحاضر، إنما هو دليل قاطع على سلامة نياته الإيجابية نحو السلام.

ثالثا: مواكبة تعزيز الحملات الدولية لحماية التراث الإنسانى وفقا لاتفاقية التراث العالمى التى أقرها المؤتمر العام (لليونسكو) فى سنة ١٩٧٢م، وقد وردت مدينة القدس وأسوارها فى قائمة مواقع التراث العالمى ـ طبقا لتلك الاتفاقية ـ اعتبارا من ديسمبر ١٩٨٧م، وقد عززت الاتفاقية الحرص على السلامة الروحية

والمادية والتاريخية للأثر الدينى، هذه السلامة الواجبة عالميا، الأمر الذى يستدعى تغذية الأوساط العالمية الثقافية بالمعلومات المتوافرة بشأن الأثر الدينى، وتشتد الحاجة إلى مثل هذه المعلومات فى حالة الأثر الدينى المماثل لبيت المقدس، لمركزها الدينى فى الأديان السماوية الثلاثة.

رابعا: دعم الجهود التى يبذلها أنصار العدالة، وأحرار العالم فى كل مكان لتغليب صورة السلام العادل على أرض المقدسات أرض السلام، وإبعاد شبح التخريب الذى لازم مقدسات القدس من خلال الاحتلال الصهيونى لها، وتعزيز الأمن لشعب فلسطين على أرضه وفى موطنه.

خامسا: تفنيد المزاعم المضللة عن الأراضى المقدسة، وذلك بتثبيت أكبر عدد ممكن من الحقائق والمعلومات عنها ـ خاصة المقدسات ـ فالمعلومة ذاتها تدافع عن نفسها.

سادسا: خدمة واضعى المناهج الدراسية، وخطط الأبحاث فى الدول العربية والإسلامية، والباحثين الأكاديميين وغيرهم، فيها وفى العالم فى اختيار أو تغذية المعلومات اللازمة عن القضية الفلسطينية والمقدسات فى الأراضى المقدسة.

ثانيا: دور الجغرافيين العرب

ما يجرى داخل القدس وحولها حاليا يمثل فى الحقيقة أعلى مراحل تهويد المدينة المقدسة، فإسرائيل التى قامت بتوسيع بلدية القدس طوال سنوات الاحتلال تستهدف فى المرحلة الحالية عزلها بالجدار عن محيطها الفلسطينى فى الضفة بهدف إستراتيجى هو تخليق «القدس العظمى» الموحدة بالتواصل الإقليمى والجغرافى بين المستوطنات الواقعة فى الضفة وخارج حدود البلدية.

هكذا تحاول إسرائيل تفكيك ثوابت الجغرافيا، وأن تستحدث بين يوم وليلة ـ إذا اعتبرنا أن الاحتلال مهما طالت سنواته مجرد جملة اعتراضية فى حياة الشعوب ـ واقعا جغرافيا جيدا أو غريبا، شاذا أو منبوذا لا تستطيع المدينة المقدسة أن تستوعبه، فالقدس ليست أرضا فقط، وإنما هى الأرض والإنسان معا؛ لأن مثل هذه التغييرات الجغرافية تستتبعها خلخلة سكانية فى المدينة لصالح المستوطنين اليهود الجدد.

هكذا تكون الديموجرافيا الإسرائيلية الجديدة فى إطار القدس الكبرى على حساب ثوابت الجغرافيا الفلسطينية، بهدف إحداث واقع جديد فى القدس يصعب ـ فى تصور إسرائيل ـ إعادة تقسيمها مرة أخرى فى مفاوضات الوضع النهائى إن قدِّر لها أن تنعقد.

وإذا كانت مسئولية استرداد القدس والدفاع عن أرضها ومقدساتها والحفاظ على طابعها التاريخى والجغرافى والحضارى ترقى إلى مسئولية "فرض عين" تقع علينا جميعا.. فإن متابعة ما يجرى من تغييرات جغرافية على أرض القدس هى مسئولية الجغرافيين العرب والمسلمين.

وما أحوجنا إلى كتابات ودراسات هؤلاء الجغرافيين لواقع المدينة المقدسة تحت الاحتلال الإسرائيلى، وهى كتابات ودراسات قليلة وشحيحة، ولا تجارى اهتمامات الأجداد فى هذا المجال.

باستعراض الإنتاج العلمى للجغرافيين المصريين والعرب والمسلمين المعاصرين، فإننا لا نجد اهتماما مذكورا بما يجرى فى المدينة المقدسة فى ظل الاحتلال، كما فعل الإدريسى (المتوفى عام ١١٦٤م)، والذى كتب عن القدس أثناء الاحتلال الصليبى لها فى كتابه (نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق)، ووصف واقع المدينة الدينى والاقتصادى وقت الحرب. (راجع ماسبقت الإشارة إليه فى هذا الكتاب).

وأؤكد هنا قصور كتابات الجغرافيين المصريين والعرب والمسلمين عن المدينة المقدسة من واقع سجل الإنتاج العلمى للجغرافيين المصريين من مطبوعات المجلس الأعلى للثقافة عام ١٩٩٥ على سبيل المثال، حيث لم يقع نظرنا على دراسات أو كتب تذكر عن جغرافية القدس أرضا أو سكانا أو احتلالا.

إن المدرسة الجغرافية المصرية مدرسة تاريخية عريقة تقدم للأمة بين حين وآخر علماء وخبراء لهم مكانتهم المرموقة بين جغرافيى عالمنا المعاصر، وندعو الجمعية الجغرافية المصرية ـ وهى أقدم جمعية متخصصة فى العالم بعد الجمعية الجغرافية الملكية فى لندن، وقد أنشئت منذ عام ١٨٧٥م ـ ندعوها للمبادرة بعقد مؤتمر

طارئ للجغرافيين العرب بالقاهرة لتدارس ما يجرى داخل القدس وحولها، ويقدمون للقادة والساسة العرب، والمفاوض الفلسطينى خلاصة فكرهم موثقا بالثوابت الجغرافية؛ لكشف المخطط الجغرافى لتهويد القدس منذ أول انتهاك لهذه الثوابت عام ١٩٦٧م، ونتائج مثل هذه الدراسات الجغرافية سوف تكون وثيقة من وثائق الدفاع عن القدس فى مختلف المحافل الدولية، وأمام أية هيئة تحكيم دولية إذا قدِّر للقضية أن تعرض للتحكيم لمواجهة تعنت سلطات الاحتلال الإسرائيلى.

على الجغرافيين المصريين والعرب والمسلمين إذن مسئولية كشف ما يجرى من تعديل فى الحدود البلدية للقدس منذ أن أسست أول بلدية عام ١٨٦٣م، ومنذ أن خضعت مدينة القدس للاحتلال الإسرائيلى عام ١٩٦٧م.

لقد أثارنا قراءة اسم جغرافى إسرائيلى يدعى (جان دى جونج) تردد اسمه فى سياق أحداث السنوات الأخيرة فى القدس؛ لإسهامه بشكل مباشر فى تحديد المحاور المختلفة لتوسيع بلدية القدس لتصبح قدسا كبرى وعاصمة موحدة وأبدية لإسرائيل.

ومشاركة هذا الجغرافى الإسرائيلى (جان دى جونج) فى عملية توسيع بلدية القدس وتهويدها دفعتنا لتوجيه رسالة العتاب إلى الجغرافيين المصريين والعرب مؤكدين اليوم أهمية دورهم القومى فى كشف ما جرى من تعديل فى حدود بلدية القدس، والمخطط الجغرافى لتهويدها كلية.

ومع رسالة العتاب نقول: والله لو قدِّر للعالم الجغرافى المصرى الدكتور جمال حمدان أن يعيش بيننا الآن لتفرغ تماما لقضية القدس، ووهب حياته الفكرية كلها لكتابة «جغرافية تحريرها»، ولا عجب، فهو المفكر الجغرافى الذى استحدث فى لغتنا العربية ومناهجنا التعليمية علمين عربيين جديدين من علوم الجغرافيا هما: علم جغرافية المدن من ناحية، وعلم جغرافية التحرير من ناحية أخرى.

وكأنه كان يتوقع ما يجرى داخل القدس وحولها، مدركا أهمية دور الجغرافيين العرب فى التصدى للمخطط الجغرافى الإسرائيلى التوسعى، فخاطب

أقرانه فى مقدمة كتابه المدينة العربية (الصادر عام ١٩٦٤م) قائلا : (لا بد هنا أن ننبه إلى أمر يختص بفلسطين المحتلة، فقد انتهينا إلى أن علينا أن ندرس ما فعله العدو بها كجزء من واجبنا من معرفة عدونا الأكبر).

من منطلق هذه الرسالة المبكرة (عام ١٩٦٤م) التى يستحث فيها الجغرافيين العرب لدراسة ما فعله العدو بالأرض الفلسطينية المحتلة بصفة عامة، فقد كشف أيضا فى الكتاب نفسه (المدينة العربية) أبعاد المخطط الجغرافى الإسرائيلى المبكر لإنشاء تل أبيب كمدينة يهودية صرف، وعاصمة لإسرائيل، على حساب يافا دون أن تغفل عين إسرائيل عن كل من حيفا والقدس منذ وقت مبكر.

ومن يقرأ كتاب جمال حمدان (المدينة العربية) سوف يكتشف على الفور أن مخطط إسرائيل المبكر لإنشاء تل أبيب منذ بداية القرن، وحتى إعلان قيام الدولة العبرية عام ١٩٤٨م يتشابه إلى حد كبير مع مخطط احتلال القدس الغربية (١٩٤٩م)، ثم محاولة دمجهما وإعلانهما كعاصمة موحدة عام ١٩٨٠م، ثم توسيعها خطوة خطوة على حساب مدن وقرى الضفة الغربية.

ويكشف جمال حمدان أبعاد المخطط الجغرافى اليهودى لإنشاء تل أبيب منذ أن أسستها الأقلية اليهودية عام ١٩٠٩م قرب يافا، ولكن خارج حدودها الإدارية حتى لا تخضع تل أبيب لسلطة البلدية العربية، وتدفقت عليها الهجرة حتى كانت قبل حرب فلسطين المدينة اليهودية الصرف الوحيدة فى فلسطين.

واختيار الموقع الجغرافى لتل أبيب عند يافا ـ التى كانت أهم موانئ فلسطين ـ اختيار جغرافى فى المقام الأول، فيافا ـ كما يقول جمال حمدان ـ تقوم على تل صغير، على الساحل عند بروز يصلح فقط لمدينة محصنة وميناء صغير، وكانت ميزة يافا ـ كما يقول حمدان ـ هى الموقع الجغرافى، فهى تتوسط ساحل فلسطين تماما، وبالذات سهل صاروبة (حقل الموالح الأساسى فى حياة واقتصاد فلسطين)، ثم هى تقع إزاء القدس (العاصمة الداخلية) ولهذا كانت تقليديا ميناء القدس عن طريق وصلة اللد والرملة، وكان هذا أساس نمو يافا فى مطلع القرن، وظلت الأقلية اليهودية تستقطب المهاجرين اليهود حتى جاء وقت كانت فيه كل

يافا عربية، وتل أبيب يهودية، ولم تلبث منذ حوالى ١٩٣٠ أن صارت تل أبيب أكبر من يافا الأم، ثم تركزت عليها الهجرة أكثر فأكثر وتكدست فيها الأجهزة الصهيونية كالهستدروت (اتحاد عمال إسرائيل)، واتخذت عاصمة لإسرائيل عند قيامها.

وبخبرة المفكر الجغرافى الكبير يؤكد حمدان خطورة الاختيار الجغرافى لتل أبيب، فيقول: إن مزاياها التى منحتها هذا النمو هى مزايا يافا، والتى ورثتها عنها والتى تعد النواة الأولى للمجتمع المدنى الضخم الذى آلت إليه تل أبيب، فقد أخذت تل أبيب ـ كما يقول حمدان ـ تنمو بتدفق الهجرة، حتى ابتلعت كثيرا من المستعمرات والمدن المحيطة، وكونت مجمّعا مدنيا كان أكبر مجمع مدنى فى فلسطين المحتلة، بل وفى إقليم الشام كله، فلقد بلغت تل أبيت يافا عام ١٩٥٨م نحو ٣٨٠ ألفا ترتفع إلى ٦١٧ ألفا إذا أضيفت الضواحى المجاورة، ولا عجب أن يتركز فى هذا المجمع - آنذاك- ٣٠٪ من سكان إسرائيل.

ويواصل جمال حمدان شرحه للمخطط الإسرائيلى المبكر لتهويد تل أبيب ـ يافا فى إطار أشمل، فيقول فى عام ١٩٦٤م ما معناه: إن إسرائيل وإن كانت قد رجحت لغة تل أبيب ـ يافا فى الثلاثينيات، ثم حيفا فى الأربعينيات، إلا أن المستهدف كان تركيز مليون يهودى فى المدن الثلاث الكبرى: تل أبيب ـ حيفا ـ القدس (الغربية) آنذاك.

وكل قارئ ـ لأبعاد هذا المخطط الجغرافى الإسرائيلى المبكر ـ يدرك تماما أن إسرائيل تمارس السيناريو نفسه، بالنسبة للقدس الكبرى الآن، ولم يكن إسهام الجغرافى الإسرائيلى (جان دى جونج) ـ الذى سبقت الإشارة إليه فى مخطط توسيع بلدية القدس حاليا ـ إلا استكمالا لدور الجغرافيين اليهود منذ مطلع القرن فى نشأة وتهويد تل أبيب ـ يافا، تطلعا إلى العاصمة المستهدفة (القدس العربية).

إن جمال حمدان ـ منذ وقت مبكر بحسه القومى الفذ، وبتوظيف كل ملكات فكره الجغرافى ـ كشف أبعاد هذا المخطط الجغرافى الإسرائيلى، مؤكدا أن الاستعمار الصهيونى ليس استعمارا سكنيا بالمعنى المعروف، ولكنه استعمار دينى

عنصرى سكنى، ليس احتلالا، ولكنه إحلال.. وهو أخطر استعمار عرفه العالم العربى من كل ناحية بما فيها المدن الفلسطينية، فلقد شوه تماما صورة هذه المدن بإيجاد مدن دخيلة جديدة تطورت إما من قرى قائمة ومستعمرات، وإما من لا شىء، وأصبحت مراكز استيطانية، مؤكدا أن هذا العبث الإسرائيلى فى المدن الفلسطينية ـ بصفة عامة ـ ليس سوى نبت غير طبيعى شاذ.

ولا ينسى جمال حمدان فى كتابه الصادر عام ١٩٦٤م أن يستشرف حتمية التاريخ قائلا: إنه من الواضح أن العرب مثلما قاموا بتصفية مدن الاستعمار السكانى فى المغرب، فإن تصفية مدن الاستعمار الصهيونى هى الآن التحدى الأكبر للتحرير العربى.

ولعل ما كتبه جمال حمدان منذ وقت مبكر ـ أى قبل احتلال القدس ١٩٦٧ ـ يجعلنا نؤكد رسالة العتاب إلى الجغرافيين المصريين والعرب، وإن كانت هذه الرسالة لا تقلل أبدا من عراقة وأصالة المدرسة الجغرافية المصرية والعربية.. فهى مدرسة غنية بفكرها ورجالها.. ومن الواجب عدم الاكتفاء بتوجيه رسالة العتاب دون المشاركة فى توضيح كيفية مشاركة الجغرافيين ـ وغير الجغرافيين ـ فى التصدى للمخطط الإسرائيلى الحالى.

هذا المخطط الذى يستهدف إقامة القدس العظمى ـ المتروبوليتان ـ والتى وصفها شيمون بيريز من قبل بأنها ليست اصطلاحا سياسيا جغرافيا، ولقد سبق للباحثين الجغرافيين الإشارة منذ أعوام طويلة إلى الصلة الوثيقة بين توسيع حدود بلدية القدس، وهدف إقامة القدس العظمى، بما يعنى أن القدس العظمى هنا تمثل حالة إجماع إسرائيلى لا تتوافر لأية قضية أخرى، حيث تستكمل الحكومة الحالية ما بدأته الحكومة السابقة، وإن اختلفت الأساليب بينهما، بين البطء أو الإسراع، وبين المراوغة أو الاستفزاز، وبين المساومة أو الخداع، وبين التوسع المحدود أو التكالب والاحتواء المباشر.

المسألة الجغرافية إذن من المسائل الهامة فى التعرف على ما يجرى داخل القدس، وما حولها، وفى مناقشة واقعها الحالى ومستقبلها، وهذا ما يعزز دعوتنا للجغرافيين العرب للتصدى لمثل هذا المخطط الجغرافى الذى يستهدف فى

الأساس تهويد القدس العظمى، وتمزيق الوحدة الجغرافية للضفة الغربية، ومن مؤشرات هذا المخطط :

ـ إقامة بلدية إسرائيلية موسعة تلتهم المزيد من أراضى الضفة الغربية، وبما يطوق القدس الشرقية من الجهات الأربع بالطرق الطولية والعرضية لعزل الأحياء العربية فيها عن الأحياء العربية فى القدس الغربية عن تلك الواقعة خارجها، وذلك بهدف إيجاد واقع جغرافى جديد تكون فيه الأحياء العربية بين فكّى كماشة لمحاصرتها وخنقها لدفع أهلها على الرحيل أو العيش فى أحياء منعزلة.

ـ شطر الضفة الغربية إلى قسمين رئيسيين، تفصل بينهما منطقة القدس العظمى المهودة، وذلك بإحداث تواصل إقليمى وجغرافى بين المستوطنات الواقعة فى الضفة خارج حدود البلدية بواسطة شبكة واسعة من الطرق العرضية والطولية؛ لتقطيع أوصال الضفة وإحكام السيطرة عليها، وتمتد هذه المستوطنات لتصل إلى البحر الميت شرقا، وحدود أريحا غربا، ومنطقة رام الله شمالا، والخليل جنوبا.

ـ يواكب هذا تغيير التركيبة الديموغرافية للقدس العظمى، وتحويلها إلى مدينة أغلبيتها الساحقة من اليهود، تتسع لمليون يهودى مع مطلع القرن الجديد.

وتشكل تلك الممارسات الإسرائيلية شكلا من أشكال التطهير العرقى الذى يتعرض له الشعب الفلسطينى ـ مسلمين ومسيحيين ـ فى المدينة المقدسة، بهدف تهويدها وإلغاء هويتها العربية.

ولا شك أن العبث الإسرائيلى بمثل تلك الثوابت الجغرافية الفلسطينية يلقى بالمسئوليات الجسام على المدرسة الجغرافية العربية، بمفكريها وأساتذتها وخبرائها وتخصصاتها المختلفة.

والمبادرة تتطلب من هؤلاء المفكرين والأساتذة والخبراء والباحثين سرعة الاتصال مع الجهات الفلسطينية المعنية لرصد التغييرات الجغرافية التى تجرى على أرض القدس، وأخص من هذه الجهات، جمعية الدراسات العربية بالقدس، وكذلك المركز الجغرافى الفلسطينى بها.

وجمعية الدراسات العربية بالقدس هى إحدى جمعيات بيت الشرق بالمدينة المقدسة، ومن دوائرها دائرة الخرائط التى تتابع عن كثب التطورات داخل المدينة المقدسة من واقع أرشيف خاص يحتوى على كل معلومة جغرافية تتعلق بكل عمليات التهويد للمدينة، ومنها أرشيف مفصل للخرائط وخطط البناء الخاصة بالقدس منذ عهد الانتداب والولاية الأردنية عليها، ومنذ الضم الإسرائيلى للمدينة، وحتى يومنا هذا.

أما المركز الجغرافى الفلسطينى بالقدس، فيُعنى بتوثيق عملية السيطرة الإسرائيلية على الأراضى الفلسطينية، ورسم خرائط مستقبلية لطرحها على مائدة المفاوضات. وخليل التفكجى، هو الخبير الفلسطينى المقدسى الذى يشغل منصب مدير دائرة الخرائط بجمعية الدراسات العربية، وفى الوقت نفسه مدير المركز الجغرافى الفلسطينى، ويعكف على إعداد مشروع كبير يتعلق بالقدس بتمويل من حكومة كندا، ويجسد المشروع - بواسطة الخرائط والرسومات - كل الممارسات الإسرائيلية على أرض القدس بدءا بإقامة الأحياء اليهودية وشق الطرق، هكذا يرصد ويوثق التفكجى كل عمليات العبث الإسرائيلى بالثوابت الجغرافية للمدينة المقدسة، وما أحوجه إلى التعاون مع الجغرافيين فى كل دولة عربية وعلى مختلف الكليات الجامعية الحية ليشرح بالكلمة والصورة والخريطة ما جرى لمدينة القدس تحت الاحتلال الإسرائيلى.

ويمثل هذا الأطلس الجغرافى للمدينة المقدسة وثيقة اتهام لإسرائيل أمام مختلف المحافل الدولية، ويعد فى الوقت نفسه وثيقة سياسية وقانونية فى أيدى المفاوض الفلسطينى إذا قدِّر لمفاوضات الوضع النهائى أن تنعقد، أو إذا قدِّر لقضية القدس أن تعرض للتحكيم الدولى.

ولعل مثل هذا الأطلس يوضح بمختلف اللغات أية قدس عظمى تريد إسرائيل تهويدها واحتواءها كأمر واقع، ويوضح أيضا أية قدس صغرى مهمشة تريد إسرائيل أن تضحك بها علينا ؟!

ولا شك أن إعداد أطلس للقدس يكشف أن مخطط إسرائيل سوف يعد وثيقة اتهام لها أمام مختلف المحافل الدولية، ويعد فى الوقت نفسه وثيقة فى أيدى

المفاوض الفلسطينى، حتى لا يفاجأ بخريطة إسرائيل عن القدس العظمى على مائدة المفاوضات، وهذا ما أورده الكاتب الفلسطينى المعروف الدكتور إدوارد سعيد فى مقال منشور بجريدة الحياة (١٧ أغسطس ١٩٩٥م) عندما أشار إلى ما كتبه الجغرافى الإسرائيلى جان دى جونج عن القدس قائلا: «الذين يتوقعون أن تكون خريطة القدس المطروحة على مائدة مفاوضات الوضع النهائى مطابقة لوضعها عام ١٩٦٧م سيفاجأون تماما، فالأرجح أنها ستمتد من بيت شمس ومدعين فى الغرب - أى نصف الطريق إلى تل أبيب تقريبا - إلى كيلو مترات قليلة من حلحول والخليل فى الجنوب، إلى ما بعد رام الله فى الشمال، إلى بضعة كيلو مترات عن أريحا فى الشرق، وهذه المساحة الهائلة التى تعتبرها إسرائيل عادة القدس الكبرى تبلغ ١٢٥٠ كيلو مترا مربعا، ويقع ثلاثة أرباعها فى الضفة الغربية».

وحتى تكون الصورة واضحة أمام المفاوض الفلسطينى يقدم الكاتب الفلسطينى المعروف د. وليد الخالدى تعريفا لخمس أقداس:

القدس الأولى: هى البلدة القديمة داخل الأسوار فى الطرف الشرقى من حدود الهدنة عام ١٩٤٧م، وهى التى تضم الحرم الشريف - بمسجديه الأقصى وقبة الصخرة - وكنيسة القيامة وحائط المبكى.

القدس الثانية: هى الحدود البلدية القديمة، إلى جانب الأحياء الواقعة شمالها وجنوبها، وهذه كانت القدس العربية عند بداية حرب ١٩٦٧م.

القدس الثالثة: وهى القدس الغربية ضمن الحدود البلدية الإسرائيلية غرب حدود الهدنة عام ١٩٦٧م، والتى كانت عاصمة إسرائيل حتى ١٩٦٧م.

القدس الرابعة: هى الحدود الموسعة شرق حدود الهدنة والتى تضم القدسين الأولى والثانية، وتبلغ مساحتها ما بين خمسة وستة أمثال القدس الثانية، وأراضيها ضمت قسرا من أراضى الضفة الغربية.

القدس الخامسة: هى حدود التخطيط الحضرى حول القدس الرابعة، وتضم أراضى مساحتها خمسة أمثال مساحة القدس الرابعة، انتزعت من أصحابها، وحولت إلى مستعمرات وضواح للقدس الإسرائيلية، ومساحتها ١٥٪ من

مساحة الضفة الغربية، وفى الوقت نفسه تضم أكبر تجمع بشرى فلسطينى وأضخم تجمع مؤسساتى فلسطينى فى العالم، ثم إنها فى موقع متوسط من جبل نابلس فى شمالها، وجبل الخليل فى جنوبها.

ونضيف إلى هذه الأقداس الخمسة قدسا سادسة حاولت إسرائيل استنساخها من العدم لتكون عاصمة ممسوخة للدولة الفلسطينية.

فعندما احتلت إسرائيل القدس عام ١٩٦٧م كانت العزيرية وأبوديس منطقتين مشهورتين ضمن مدينة القدس، فقامت إسرائيل بنزع هاتين المنطقتين من القدس، وقامت بإعلان توحيد المدينتين الغربية والشرقية كعاصمة واحدة، وفى الوقت نفسه أبقت إسرائيل هاتين المنطقتين خارج التقسيم الإسرائيلى، رغم كونهما أصلا جزءا لا يتجزأ من المدينة المقدسة، وما يجرى الآن هو محاولة تكبير المنطقتين وربطهما برام الله، وبالتالى تصير هذه المنطقة (العزيرية ـ أبوديس ـ رام الله) القدس الفلسطينية، ويتم إنشاء ممر بين هذه القدس (المصنعة أو المفبركة والأماكن المقدسة الدينية بإشراف مشترك وليس ـ دوليا ـ فلسطينى ـ إسرائيلى، لتأمين حرية العبادة للمسلمين والمسيحيين.

والتساؤل المطروح بعد التعريف بالأقداس الست: أية قدس سوف تدور المفاوضات حولها؟

والإجابة على مثل هذا التساؤل ـ وأيًا كان الخيار العربى والفلسطينى فى هذا الشأن.. نقول: الإجابة مرهونة بإعداد مسبق لأطلس جغرافى كامل متكامل للقدس التى سوف تجرى على أساسها المفاوضات.. وهى ـ كما هو متوقع ـ تعد أصعب مفاوضات سوف يشهدها القرن الحادى والعشرون ـ إن قدّر لها أن تلتئم أو تنعقد.

مسئولية الجغرافيين العرب إذن، تسبق مسئولية صانع القرار العربى، وكذا مسئولية المفاوض العربى والفلسطينى بشأن القدس، ومن هنا تتبع مسئولية الجغرافيين فى توظيف كل ملكات فكرهم الجغرافى وخبراتهم وتخصصاتهم فى إعداد مثل هذا الأطلس الذى سوف يكون ـ فى الوقت نفسه كما سبقت الإشارة ـ أول وثيقة اتهام دامغة لممارسات إسرائيل فى المدينة المقدسة.

المصادر والمراجع

أولا: الكتب

١- أحمد أبو سعد: أدب الرحلات - منشورات دار الشرق الجديد- بيروت ١٩٦١م.

٢- د. أحمد يوسف القرعى: وثيقة الدفاع عن القدس.. من يكتبها؟ -أبوظبى- ٢٠٠٠م.

٢- د. أمين مسعود أبوبكر: ملكية الأراضى فى متصرفية القدس (١٨٥٨- ١٩١٨)- عمان ١٩٩٦.

٣- د. حامد زيان غانم: د. عطية أحمد القوصى (إشراف وتقديم): بحوث مؤتمر مصادر تاريخ القدس بكلية الآداب ـ جامعة القاهرة (٢١- ٢٣ مارس ١٩٩٨م).

٤- د. حسين فوزى: حديث السندباد القديم- القاهرة ١٩٤٣م.

٥- رائف يوسف نجم، وآخرون: كنوز القدس- الناشر، المجمع الملكى لبحوث الحضارات الإسلامية- ١٩٨٣م.

٦- رحلة ابن بطوطة: الناشر، دار بيروت، دار النفائس- طبعة ١٩٩٧م.

٧- رحلة ابن جبير: الناشر، دار الكتاب اللبنانى.

٨- زكى محمد حسن: الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى- القاهرة- ١٩٤٥م.

٩- د. عبدالفتاح حسن أبو عليه: القدس- دراسة تاريخية حول المسجد الأقصى والقدس الشريف- دار المريخ للنشر- الرياض- ٢٠٠٠م.

١٠- فؤاد إبراهيم عباس: موسوعة بيت المقدس- تسعة أجزاء حتى نهاية حرف الباء- القاهرة.

١١- منظمة المؤتمر الإسلامى: وثيقة القدس.

١٢- ناصر خسرو علوى: سفر نامة- ترجمة يحيى الخشاب - القاهرة ١٩٩٣م.

- كنوز القدس ـ الناشر: المجمع الملكى لبحوث الحضارات الإسلامية ١٩٨٣م.

١٣- نقولا حداد: الرحالة العرب- القاهرة- ١٩٦٢م.

ثانيا: بحوث ودراسات

١- د. أسامة محمد فهمى صديق: الجغرافيون والرحالة المسلمون فى مدينة بيت المقدس فى العصر الإسلامى- منشور فى كتاب القدس: التاريخ والمستقبل- مركز دراسات المستقبل- جامعة أسيوط ١٩٩٦م.

٢- د. سهير محمد إبراهيم نعينع: القدس فى كتابات الرحالة فيلكس فابرى- منشور فى كتاب بحوث مؤتمر مصادر تاريخ القدس- كلية الآداب- جامعة القاهرة- ١٩٩٨م.

٣- د. عبدالله حامد الحميد: رحلات بعض السادة العلويين الحضارم إلى القدس ـ مصدر من مصادر تاريخ القدس فى العصر الحديث ـ منشور فى كتاب بحوث مؤتمر مصادر تاريخ القدس، كلية الآداب ـ جامعة القاهرة ـ ١٩٩٨م.

٤- د. عطية أحمد القوصى: القدس فى سفر نامة، ناصر خسرو، منشور فى كتاب بحوث مؤتمر مصادر تاريخ القدس، كلية الآداب- جامعة القاهرة- ١٩٩٨م.

٥- د. محمد فؤاد خليل: عروبة القدس من خلال كتابات المبشرين الأمريكيين فى القرن التاسع عشر، منشور فى كتاب بحوث مؤتمر مصادر تاريخ القدس، كلية الآداب- جامعة القاهرة- ١٩٩٨م.

د. أحمد يوسف القرعى

كاتب صحفى متخصص فى الشئون العربية والأفريقية، تابع عن كثب ـ فى كتاباته الصحفية ودراساته وبحوثه العلمية ـ حركات تحرير الدول العربية والأفريقية، وخص قضية تحرير القدس باهتمام متزايد منذ محاولة إسرائيل إحراق المسجد الأقصى (فى أغسطس ١٩٦٩)، وحذر مبكرا من مخطط إسرائيل لتهويد القدس، وظل يتابع بالتحليل السياسى محاولات الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة لتكريس عملية تهويد المدينة المقدسة، مؤكدا أهمية الوعى بعروبة القدس، وضرورة تعبئة المساندة الشعبية حولها، وعوّل كثيرا على أهمية دور الاتحادات المهنية العربية التى تمثل ضمير وعقل الأمة؛ جنبا إلى جنب دور الحكومات فى مساندة انتفاضة الأقصى، والإسراع بإعداد وثيقة قانونية دفاعا عن القدس؛ لتعبئة رأى عام عالمى مناصر للقضية الفلسطينية، وتحسبا لاحتمال اللجوء إلى التحكيم الدولى فى حالة الفشل الكامل لعملية التسوية السلمية.

وعبَّر د. أحمد يوسف القرعى عن هذه الأفكار وغيرها فى كتبه ودراساته ومقالاته عن القدس، ومنها كتاب (القدس من بن جوريون إلى نيتانياهو) وكتاب (وثيقة الدفاع عن القدس من يكتبها؟) الذى نال جائزة أفضل كتاب فى معرض القاهرة الدولى للكتاب (يناير ٢٠٠٠)، وكتاب (انتفاضة الأقصى) عام (٢٠٠٢)، وكتاب القدس قضية الساعة (٢٠٠٣).

ومن الكتب الأخرى نذكر كتاب (قضايا الشباب والمتغيرات السياسية الدولية ـ١٩٩١)، وكتاب (الحركة النقابية الدولية ـ ١٩٨٦)، وكتاب (العولمة وصدام الحضارات - قراءة فى فكر مهاتير محمد ٢٠٠٥).

هذا فضلا عن التخصص فى الشئون العربية، وفى القلب منها قضية القدس. أما بشأن التخصص فى الشئون الأفريقية، فقد تتلمذ على فكر كل من د. بطرس بطرس غالى، ود. عبد الملك عودة، وحصل على درجتى الماجستير والدكتوراه فى الشئون الأفريقية، وكان عنوان رسالة الماچستير: سياسة مصر الخارجية تجاه تصفية الاستعمار فى أفريقيا، جامعة القاهرة، ١٩٧٨، وعنوان رسالة الدكتوراه: الحركة النقابية الأفريقية ودور مصر فى نشأتها وتطورها (جامعة القاهرة ٢٠٠٠).

نال د. أحمد يوسف القرعى جائزة المقال التحليلى من نقابة الصحفيين عام ١٩٨٦، واختير عضوا بعدد من اللجان الثقافية والعلمية، منها لجنة العلوم السياسية بالمجلس الأعلى للثقافة، ومجلس إدارة مركز البحوث الأفريقية، ووحدة الدراسات المصرية / الأفريقية بجامعة القاهرة، ومجلس أمناء الجمعية العربية للإدارة، كما تم انتخابه مقررا للجنة الإعلام بمكتبة الإسكندرية (٢٠٠٤-٢٠٠٥)، وعضوا بشعبة الإعلام بالمجالس القومية المتخصصة، وشارك كعضو فى مناقشة رسائل ماجستير ودكتوراه فى مختلف الجامعات المصرية، وقام بتدريس مادة علم السياسة بكلية الإعلام جامعة ٦ أكتوبر (سنوات ٢٠٠٢، ٢٠٠٣، ٢٠٠٤)، كما اختير محكِّما فى لجان مهرجان القاهرة للإذاعة والتليفزيون (سنوات ٢٠٠٢، ٢٠٠٣، ٢٠٠٥).

د. أحمد يوسف القرعى من مواليد بلقاس- دقهلية عام ١٩٤٠، وتلقى تعليمه فى مدارسها، ونال بكالوريوس وماجستير ودكتوراه العلوم السياسية من جامعة القاهرة أعوام (١٩٦٢، ١٩٧٨، ٢٠٠٠)، وعمل فى البداية محررا سياسيا بمصلحة الاستعلامات (وزارة الإعلام) لمدة ثلاث سنوات قبل التحاقه بجريدة الأهرام محررا بمجلة السياسة الدولية منذ عددها الأول (يوليو ١٩٦٥)، ثم مديرا لتحريرها ١٩٩٢، إلى جانب عمله عضوا بمجلس تحرير الأهرام (١٩٩٢- ١٩٩٧)، ومشرفا على تحرير صفحات قضايا وآراء منذ عام ١٩٩٤، ونائبا لرئيس تحرير الأهرام منذ عام ١٩٩٧.